الباحثون المسلمون

٤٩)) هل قال علماء المسلمين القدامى بالتطور ؟

The.Muslim.researchers   www.muslims-res.com



كتاب الباحثون المسلمون
عن التطور

كتاب

(الباحثون المسلمون)

عن التطور ...

الطبعة التجريبية الأولى للفصول المتفرقة ١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

للملحوظات أو التصويبات يسعدنا تواصلكم معنا على إيميل:
The.muslim.researchers@gmail.com

حقوق الطباعة (المجانية فقط) والترجمة والاقتباس والنشر:

مكفولة لكل مسلم ولكل باحث عن الحق

The.Muslim.researchers   www.muslims-res.com

إن هـذا الكتـاب وكـل مـا تقـدمـه مبـادرة الباحثون المسـلمون العلمية سـواء على صـفحتهـا الرئيسـيـة في الفيسـبوك www.facebook.com/The.Muslim.researchers أو على موقعها الرسـمي http://muslims-res.com/ هو ملـك لكل مسلم ومسلمة في كل مكان في الأرض وبكـل لغـة، ويُحظر حظراً تـامـاً طبـاعتـه بغرض التربح المـادي منـه، فكـل موادنـا متاحة للتحميل المجاني على الفيسـبوك أو الموقع بمـا يتمـاشـى مع هـدف المبـادرة وطبيعـة القـائمين عليها وجهودهم الذاتية في دعمهـا إلـى الآن، إذ نحن لا نتبع جهة معينة في التمويـل، ولا نطلـب أجراً على عملنـا إلا من الله، ونسـأله وحده العون والتوفيق

المقدمة

في منتصف القرن العشرين ظهرت مجموعة **تجارب آش للامتثال** The Asch conformity experiments حيث برهن فيها **سولومون آش** Solomon Asch على مدى تأثير رأي **الأغلبية** أو **الأكثرية** Majorit على رأي الفرد حتى ولو اضطر أن يخالف ما هو متأكد منه يقيناً وذلك حتى لا يظهر بينهم في صورة الجاهل أو الشاذ.

فإذا تأملنا هذه الحالة (أي الامتثال للأكثرية) لوجدنا أنها تمثل تهديداً حقيقياً يقطع الطريق على أي طالب حق أو علم في المجتمعات إذا صار لها **توجهات معينة تتبناها**، ففي **تجربة آش** المذكورة كان يتم عرض مجموعة من الصور لخطوط متفاوتة في الطول على أحد الشباب ليُحدد أقربهم طولاً للآخر، ورغم وضوح الفارق في الصور إلا أن الشاب كان يجيب على الأسئلة بالإجابة التي يعلم يقيناً أنها **خطأ** ليتماشى فقط مع رأي الشباب الآخرين بجواره (والذين يُخطئون عمداً بالاتفاق مع **آش**).

فإذا نقلنا دائرة الحديث إلى التطور، وجدنا أنه اليوم يمثل **أكبر قضية جدلية** في العالم بشقيها (**العلمي**) و (**الديني**) معاً، فأما **العلمي**؛ فلأنه يعارض فطرة العقل وبداهة التجربة العلمية من أن الأشياء التي تقع بعشوائية وصدفة لا يمكن أن ينشأ عنها نظاماً أو بناءً أبداً معقداً متراكباً وله غاية، حيث أن الصدفة والعشوائية **تسير دوماً في اتجاه واحد لا ينعكس** وهو اتجاه الهدم والتفريق الذي تقوده قوانين الطبيعة في الانتشار إلى الاستقرار (وذلك مثل وقوع نقطة حبر في كوب ماء بعيداً عن أي مؤثر فإنها تنتشر فيه إلى أن تتوزع وتستقر فيقال هنا أنها ذات إنتروبي Entropy عالية)، فهذا **المسار ذو الاتجاه الواحد** الذي يشبه سقوط الصخور من فوق الجبل إلى الأرض أو سقوط أوراق الكوتشينة على سطح المنضدة؛ لن يشك عاقل أبداً في استحالة **عكس اتجاهه** ضد قوانين الطبيعة إلا **بفاعل** قادر حكيم مُريد يعلم ما يفعل، فنقطة الحبر يستحيل أن تجتمع من كوب الماء مرة أخرى تلقائياً، ولا الصخرة كذلك ستصعد للأعلى وتصنع بيتاً في طريق سقوطها، وأيضاً أوراق الكوتشينة لن تترتب في نظام أثناء سقوطها لتصنع بناءً هرمياً، فهذه التصورات كلها باطلة في الفطرة العقلية وبداهة التجربة عند كل البشر.

ومن هنا ندرك لماذا اتسعت رقعة الصراع حول التطور لتشمل **ألواناً أخرى من العلوم غير الأحياء أو البيولوجيا** (مثل الفيزياء والرياضيات وحتى البرمجة)، وأما على مستوى **الدين**؛ فالأمر صار أشهر من أن نتحدث عنه، حيث تم استبدال علامات الخالق وآيات الصانع العلمية والمنطقية في كل مخلوق؛ بالصدفة والعشوائية، ومن هنا...

فنحن نفتح في هذا الكتاب آفاقاً رحبة لكل قارئ ومتفكر معنا لنعرض عليه الأمر من وجهة نظر **العلم** و**الصدق**، العلم الصحيح بشروط **المنهج التجريبي**، والصدق في **النقل** و**الأدلة** و**التوثيقات** و**الاقتباسات** و**الشرح العلمي**، ثم يكون له الرأي في النهاية.

محتويات الكتاب

(يتراوح طول الفصول من عدة صفحات إلى عشرات الصفحات)

الباب الأول: التطور والعلم

الباب الثاني: التطور والدين

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس الفصل (٤٩)

٤٩)) هل قال علماء المسلمين القدامى بالتطور؟

حيث إما عن سوء فهم أو عن تعمد التحريف زعم بعض الأوربيين أنهم وجدوا في كتب علماء المسلمين القدامى ما يشير إلى (**نظرية التطور المحمدية** Mohammedan theory of evolution) مثل هذا الكتاب: Adam's Gene and the Mitochondrial Eve By Dr Kutty p.121، وعلى هذا الأساس تم نشر هذا الزعم بين المسلمين لتدعيم النظرة القائلة بأن الإسلام لا يعارض فكرة التطور والدليل أنه هناك من علماء المسلمين مَن أشاروا إليها وذكروها من قبل في كتاباتهم[١]. فهل هذا صحيح؟؟
دعونا أولاً وقبل كل شيء نتعرف على ما كان يُسمى قديماً باسم:

(**السلسلة العظمى للوجود**) Great chain of being

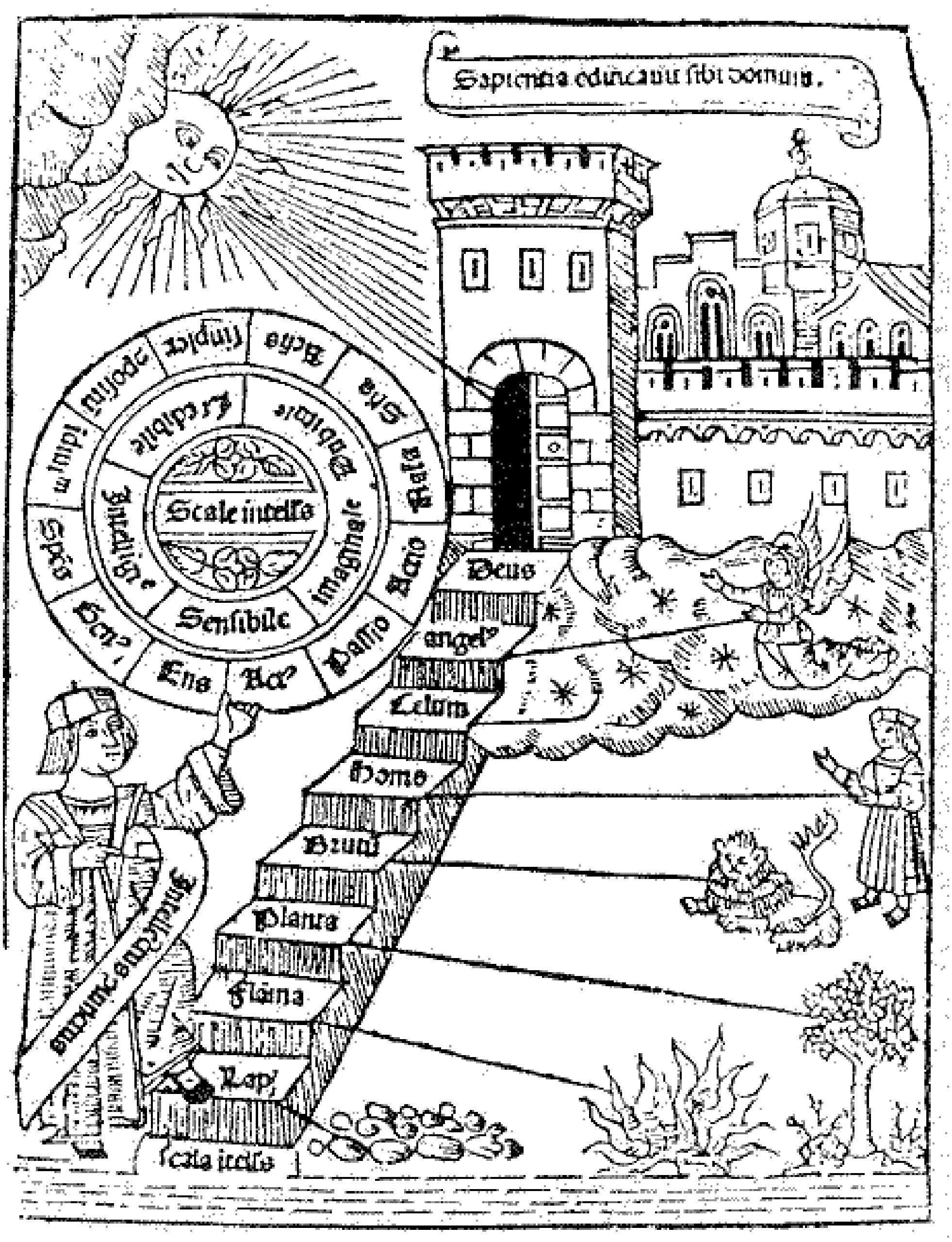
حيث من مجموع الكتابات الفكرية والفلسفية في الماضي لدى أشخاص مثل **أفلاطون** و**أرسطو** و**أفلوطين** و**برقلس**: صار من السهل وضع تصور تدرجي (أو هرمي) للموجودات، حيث يوجد (الإله) في أعلى الموجودات، ثم يليه عالم الملكوت غير المادي مثل (الملائكة)، ثم (الأفلاك) أو الكواكب، ثم يتدرج إلى أسفل نحو عالم الماديات وعلى رأسها (الإنسان)، ثم (الحيوان) بجميع أنواعه من زواحف وطيور وثدييات وأسماك إلخ، ثم (الأشجار) النامية والمثمرة، ثم (العشب والحشائش)، ثم (الصخور)، ثم (الأرض)...

ومع كل مرحلة زمنية معينة كان يتم بعض التعديل على هذه السلسلة سواء في التفاصيل أو التفريعات والدرجات الزائدة لغرض سياسي أو مَلكي (مثل تقسيم الإنسان إلى درجات من الملوك والنبلاء والفلاحين والعمال) أو لغرض بحثي تصنيفي علمي بحت[٢].

---

(١) بالطبع العلمانيون والملحدون لهم موقف متناقض من ذلك، فهم من جهة يوافقونه إذا أرادوا أن يقنعوا مسلماً ليقبل التطور، ومن الجهة الأخرى يرفضونه إذا شعروا أنه يسحب (أولية) الحديث عن التطور علمياً من الغرب وداروين الذي يقدسونه، ومن العلماء المنسوب إليهم ذلك (رغم أنهم يتحدثون عن تصنيف الموجودات كما سنرى وتكيفها وملائمتها لبيئاتها وليس التطور): ابن خلدون والجاحظ وإخوان الصفا وابن الهيثم والطوسي والبيروني والخازني وابن سينا وابن عربي وابن كثير وابن مسكويه، ويقول العلمانيون والملحدون أن هؤلاء لو قالوا ذلك اليوم لرجمهم المسلمون. وذلك تناقض عجيب منهم لأنه لو كان القول بالتطور متواتراً في الأمة الإسلامية لدرجة أن يتم تدريسه في كل مدرسة ومسجد كما يزعم هذا الكتاب الغربي العجيب: Evolution: organizations and the dynamics of the environment p.173 لما كان استهجنه مسلم وهو بكل ذلك (الانتشار) كما يدعون، ولكننا سنرى بعد لحظات خطأ كل ذلك.

(٢) ومن ذلك مثلاً أن العرب كانت تطلق وصف (الحشرة) على صغار دواب الأرض كاليربوع والقنفذ والضب ونحوه، أو على هوام الأرض عموماً مما لا اسم له (انظر لسان العرب مادة حشر)، ولذلك نجد في كلام الفقهاء والعلماء قديماً أن الوزغ الوارد في حديث النبي صلى الله عليه



صورة من العصور الوسطى الأوروبية تمثل (**السلسلة العظمى للوجود**).

ونلاحظ في تلك السلسلة وفي ذلك التصور أن كل درجة هرمية في أصل هذه الموجودات لا يمكن في الطبيعة (أي بشكل تلقائي) أن تتحول أو ترتقي إلى الأخرى، فلا الملائكة ستصير إلهاً ولا الإنسان كذلك. وأيضاً الحيوان لن يصير إنساناً، ولا الشجرة ستصبح حيواناً أو الصخرة الجماد ستكون عشباً أو حشائش، فقط العاملين **بالخيمياء** هم الذين زعموا تحول بعض هذه الموجودات إلى غيرها. و**الخيمياء**

= وسلم (والذي يُسميه البعض أبو بريص) هو دويبة من الحشرات. فلما تطور علم التصنيف قليلاً للتقسيم والتفريق بين دواب الأرض صاروا ينسبونه إلى الزحافات (أي التي تزحف) وهكذا...

و**السيمياء** هما فرعان قديمان من السحر المتعلق بتحويل الأشياء إلى بعضها البعض عن طريق بعض التفاعلات والمعاملات (وكان الفضل الأكبر لعلماء الإسلام في تنقية كل ذلك والخروج منه بعلم **الكيمياء** الحديث).

إذن... عندما يتحدث أحد عن الفروقات بين هذه الموجودات فهو يتحدث عن فروقات **الرتبة** و**الفوقية** أو **الدونية** فيما بينها، وكيف أن منها ما هو سافل في القيمة، ومنها ما يحتوي على قيمة وروح ونفس علوية أكثر من غيره، فنفس الإنسان أعلى وأسمى بالتأكيد من نفس الحيوان، ونفس الحيوان أعلى من نفس النبات وهكذا...

ومع عصر الترجمة الذي تم فيه نقل الكثير من المعارف والفلسفات اليونانية القديمة إلى الحضارة الإسلامية؛ انتقلت معه مثل هذه المفاهيم إلى بعض العلماء والمفكرين المسلمين على مر العصور. فمنهم مَن أشار إليها إشارات موجزة، ومنهم مَن تحدث عنها بتوسع وشرح. وأما السيئ هنا فهو اتخاذ مثل هذه الكتابات عن (**السلسلة العظمى للوجود**) كإشارة على التطور. وتحريف مقصود ومعاني مَن كتبوا فيها أو عنها كما سنرى الآن للأسف.

حيث تم استغلال عدم اطلاع أكثر الناس وأكثر المسلمين على الكتابات الأصلية في هذا الخداع، وخصوصاً عند اقتطاع بعض الجمل أو الفقرات من سياقها السابق واللاحق الذي يوضحها... وتعالوا نرى معاً بالأمثلة العملية إلى أين وصلت مزاعم التطوريين في ذلك، والتي تابعهم فيها عن جهل للأسف بعض المسلمين فنقلوها إلى الناس على أنها حقائق لا شك فيها من دون أن يكلفوا أنفسهم حتى الرجوع إلى الكتب الأصل.. أو لم تساعدهم مَلكة اللغة العربية للوقوف على المعاني الصحيحة للكلام، وكان على رأس هؤلاء **جمال الدين الأفغاني**.

١)) جمال الدين الأفغاني[٣]

لعله من أكثر الكتابات تفرقاً كانت كتابات هذا الرجل، حيث عاش معظم حياته متنقلاً بين العديد من البلدان العربية والأجنبية بفكره الذي استعدى عليه أحياناً حُكاماً

(٣) هو جمال الدين بن صفتر الحسيني أو الأفغاني أو المازندراني أو الأسد آبادي أو الفارسي، (١٢٥٤- ١٣١٢هـ)، (١٨٣٨- ١٨٩٧م) أحد أشهر المُجددين الإسلاميين (أو المُصلحين كما كانوا يُسمونهم في نهاية القرن التاسع عشر)، كان كثير الأسفار في مختلف البلدان الإسلامية والغربية مُطارداً بأفكاره ولذلك كثرت ألقابه التي كان يكتب بها أو يتخفى فيها، وقد وُلد في همدان من أعمال إيران في قرية أسد آبادي، وهو من أسرة شيعية. درس في قزوين، ثم انتقل به أبوه إلى طهران وعمره ١٢ سنة، وجالس كبار علمائها وأخذ عنهم، ثم رحل إلى النجف مع والده، فمكث فيه ٤ سنوات درس فيها مختلف العلوم الشرعية والعلمية والفلسفية، ورغم اشتهاره بلقبه (الأفغاني) إلا أنه كان فارسياً على الأرجح.

وسـيـاسـيين، ولذلك لم تظهر كتاباته بصـورة مُجمعة ومُنظمة إلا مع مجهودات **هادي خسرو شاهي** الذي قضى قرابة ٥٠ عاماً في تتبعها من إيران ومصر ولبنان والعراق وايطاليا وإنجلترا وفرنسا وتركيا وباكستان وأفغانستان. ثم تم نشرها بعد تحقيقها وترجمتها إلى عدة لغات وذلك في تقسيم ١١ جزءاً (تم نشر أول ٩ منهم في ٦ مجلدات) وهم :

١)) العروة الوثقى (وكانت مجلة). ٢)) رسائل في الفلسفة والعرفان. ٣)) الرسائل والمقالات. ٤)) ضياء الخافقين (وكانت مجلة). ٥)) مُجمل تاريخ إيران وتاريخ الأفغان. ٦)) **خاطرات جمال الدين الأفغاني الحسيني**. ٧)) التعليقات على شرح العضدية للإيجي (وهو كتاب في علم الكلام الأشعري). ٨)) رسائل ووثائق سياسية وتاريخية. ٩)) مقالات بالفارسية. ١٠)) المُستدركات. ١١)) مواضيع متنوعة وقصائد.

ومن **خاطراته** سننقل رده على سؤال وصله بخصوص قول أبي العلاء المعري الشاعر:

والذي حارت البريةُ فيهِ ... حيوانٌ مُستحدثٌ من جمادِ

هل له علاقة بما جاء به **داروين** من نظرية (النشوء والارتقاء)؟ وسننقل أغلب إجابته بعد تجاوز المقدمة لعدم التطويل وذلك لأهمية إظهار أنه حتى مَن أخطأ من المسلمين في تبني التطور فقد جرده من آلياته العشوائية.. يقول:

"أما مقصد أبو العلا المعري، فظاهر واضح، ليس فيه خفاء، فهو يقصد النشوء والارتقاء، أخذاً بما قاله علماء العرب قبله بهذا المذهب، إذ قال أبو بكر بن بشرون فى رسالته لأبى السمح، عرضًا، فى بحث الكيمياء: "أن التراب يستحيل نباتًا، والنبات يستحيل حيوانًا، وإن أرفع المواليد هو الإنسان (الحيوان) هو آخر الاستحالات الثلاثة وأرفعها.. وإن أرفع مواليد التراب (ومنه المعادن) النبات، وهى أدنى طبقات الحيوات، سلسلة تنتهى عند الإنسان.. إلخ"

فإذن مذهب النشوء والارتقاء على هذا الأساس، فالسابق فيه علماء العرب، وليس داروين مع الاعتراف بفضل الرجل، وثباته وصبره على تبعاته، وخدمته للتاريخ الطبيعي من أكثر وجوهه، وإن خالفته وخالفت أنصاره في مسألة (نسمة الحياة) التي أوجدها الخالق سبحانه وتعالى، لا على سبيل الارتقاء من سعدان[٤]، الإنسان، أو من الزوابع المائية أو أن البرغوث سيكون بعد ألوف أو ملايين السنين فيلاً عظيماً، لأننا نرى اليوم في البرغوث ما يشبه الفيل، وغير ذلك من المباحث التي دونتها في رسالة

(٤) السعدان يطلقه العرب على أنواع كثيرة من القرود، ويستخدمونه كمرادف للقرد Ape.

(نفي مذهب الدهريين)، ردًا على داروين وأشياعه، وأرى إغراقًا في نسبة الإبداع والابتكار للنشوء والارتقاء والانتخاب الطبيعي.

ولو قال بذلك مثل بخنر وهسكلي وسبنسر وغيرهم من علماء الغرب ممَن لو جاز ترك مناقشتهم فلا يسعني أن أمر على ذكر حكيم شرقي، انخرط مع مَن ذكرت من العلماء مَن أيدوا مذهب داروين وأخذوا بناصره وهجموا على مألوف الشرقيين بقواعد ذلك المذهب، فمن حيث الجهر ومعتقد يعتقد الإنسان أنه اعتقاد صحيح ولو خالف الجمهور فالدكتور شميل[(٥)] له من نشر مذهب داروين وتحمله أعباء الكثيرين له (عن غير علم وتحقيق) يُعد للشميل فضل ولكن لا أرى الدكتور شبلي قد تخلص من جرأته الأدبية وبعض رسوخه في الفلسفة من وصمة التقليد الأعمى لعلماء الغرب، وبمعنى أوضح، أنه أراد أن ينتصر لداروين، وأن ينشر مذهبه رغم أهل الأديان، في ذات الوقت عارض أستاذه، وصاحب المذهب المنتصر له.

إذ لا يخفى أن القصد من مذهب الماديين، والوصول إلى أن الإنسان تدرج من الحيوان، وأعظم دليل لهم ما يُرى في السعدان والقرود وأعلى أنواعه (الأورانجتان)[(٦)] من الذكاء والحركات وتركيب الأعضاء، ثم أنهم نظروا في أجنة ذوات الفقر[(٧)]، ومنها الإنسان، فرأوه يمر نموه بدرجات الحيوانات التي دونه حتى الأحفورية السابقة لها... إلخ.

ولكي يتوصلوا إلى جحود خلق الإنسان بتقويمه الحسن هذا، رأيناهم يركضون وراء الأحافير، ويغوصون في طبقات الأرض، وإمامهم في مذهب النشوء والارتقاء هو داروين بلا شك، وهذا الحكيم لما وصل إلى النقطة الجوهرية وهى موجد نسمة الحياة لم يسعه إلا أن قال إن الخالق هو الذى نسم الحياة في الأحياء، وهذا قوله بالنص الواحد: "إني أرى أن الأحياء التي عاشت على هذه الأرض جميعاً من صورة واحدة أوليه نفخ الخالق فيها نسمة الحياة" إن قول داروين هذا ينفي ظهور الحياة على سبيل طبيعي، ولكنه لم يرق لعلماء الطبيعة الماديين وأنكروا على داروين هذا القول واتهموه بالخوف من أهل دينه وقالوا إن قوله هذا يجعل المذهب ناقصاً بل ينقضه من

---

(٥) شبلي شميل أو شبلي بن إبراهيم شميل (١٨٥٠- ١٩١٧م) طبيب ومفكر اجتماعي لبناني، ولد في كفر شيما من قرى لبنان، وقد تخرج من الكلية البروتستنتية /الجامعة الأمريكية في بيروت، ثم توجه إلى باريس لدراسة الطب، ثم استقر في مصر ليقود زوبعة فكرية مادية لادينية كبيرة فيها بتوجهه الاشتراكي، وكان من أشهر أعماله كتاب (فلسفة النشوء والارتقاء) وهو الترجمة لكتاب بخنر Buchner (ست محاضرات حول نظرية داروين).

(٦) الأورانجتان Orangutan هو قرد الغابة (ويشتهر في الخارج باسم إنسان الغابة نظراً لتشابه حركات وجهه وشفتيه بالإنسان).

(٧) يقصد أجنة الفقاريات (وهو متأثر هنا بالرسومات الكاذبة للتطوري الألماني إرنست هيجل).

أساسه، لأن الغاية كما ذكرنا من مذهب الطبيعيين إنكار الخالق وإسناد الأعمال إلى الطبيعة.

هذا مقام الحيرة لمريدي مذهب داروين، فإما أن يكون إمام مذهبهم داروين قال رأيه السابق عن علم وتحقيق وفيه كما قال نقض لأساس المذهب، وإما أن يكون الخوف الذي اتهموه به من أهل الأديان حمله على الجهر بهدم أساس مذهب الطبيعيين.

وبالنتيجة، يريد الدكتور شميل، والأستاذ برن وغيرهما أن يوافقوا داروين إذا أصر على إنكار الخالق، ويخالفوه إذا أقر بوجوده.

وبالاختصار أن كل ما جاء في مذهب الطبيعيين من حصر الأحياء بأنواع قليلة، وتفرع الكثير منها وعنها، كل هذا لا يضر التسليم به، كما أنه لا يفيدهم أن الحياة وظهور الأحياء نتيجة طبيعية لقوى طبيعية، نعم إذا أمكنهم إثبات التولد الذاتي[٨] كان لأقوالهم معنى ولمذهبهم مستند.

هذا والذي رأيت ما يؤاخذ به الحكيم الشميل، وقد خالف إمامه وأستاذه داروين، وفيما عدا ذلك فإني أقدر الشميل قدره في دقة بحثه وتحقيقه وجرأته على بث ما يعتقده من الحكمة، وعدم تهيبه من سخط المجموع لما يجهله من حقائق العلم.

أما الانتخاب الطبيعي فهو في جيل البداوة وفى حضارة الإسلام أمر معروف ومعمول به، سواء أكان في انتخاب الزوجات من النساء والنجيبات من الأمهات فيخطبون بناتهم[٩] وفى ذلك أقوال مأثورة: القول خذ لابنك خالاً أي زوجة يكون لها من الصفات الطيبة وحُسن الخَلق والخُلق والمزايا لأخواتها حتى إذا جاء الولد يكون فيه من الوراثة عن طريق أمه ما يشبه أخواله من موجبات الفخر، كذلك عن طريق الأب فيشبه الأعمام فيفتخر أو يمتدح فيقال فلان معم مخول أو في تحسين نسل الخيل.

وأما حرص العرب على الانتخاب الطبيعي في تحسين الحيوان فأمر مشهور، إذ البدوي إلى اليوم يطوف البراري والأمصار ليجد لفرسه جواد من جواد الخيل ويحرصون على أنساب الخيل حرصهم أو أكثر من حرصهم على أنساب البشر".

انتهى كلامه ورده على السؤال.

---

(٨) التولد الذاتي أو التلقائي Spontaneous generation هو زعم كان سائداً في عصور الجهل الأوروبية بأن أشكالاً معينة من الحياة (مثل الذباب والديدان والفئران) يمكنها أن تتولد من مواد غير حية مثل الطين وبقايا الطعام واللحم. وهو ما أبطله العالم الفرنسي الشهير لويس باستور نهائياً بتجاربه الشهيرة في البسترة Pasteurization لحفظ الطعام والأشياء.

(٩) من كلام الأفغاني هنا سيتبين لنا اختلاف فهمه للانتخاب الطبيعي عما قصده داروين الذي زعم الانتخاب الطبيعي آلية للتغيير من نوع كائن إلى نوع كائن آخر. وهو ما لم يشاهده أحد ويختلف عن الاختيار العاقل لأنفع وأوفق الأفراد من كل نوع بالتزاوج والتهجين.

ونلاحظ كما قلنا أنه رغم خطأه في خلط فكرة الانتخاب الطبيعي بالانتقاء البشري العاقل (نفس ما فعله **داروين**)، إلا أنه خالف **داروين** في نسبة ذلك لله لا للعشوائية ولكن: ماذا عن قوله في **المعري**؟

2)) أبو العلاء المعري(١٠)

وهو الذي أجاب عن أبياته **جمال الدين الأفغاني** كما رأينا منذ قليل بأنها تدل على (**نظرية النشوء والارتقاء**)، في حين أنها أبيات قالها **أبو العلاء المعري** في رثاء أحد الفقهاء عند موته:

بانَ أمرُ الإلهِ واختلفَ النا ... سُ فداعٍ إلى ضلالٍ وهادي

والذي حارت البريةُ فيهِ ... حيوانٌ مُستحدثٌ من جمادِ

فأخذوا نصف البيت الثاني (**حيوانٌ مُستحدثٌ من جمادِ**) وقالوا بأنه إشارة إلى التطور، في حين أن كل الناس مسلمهم وكافرهم وعربيهم وأجنبيهم عندما قرأوا الأبيات لم يخطر على بال أحدهم قط مثل هذا المعنى.

فلا العرب كانوا يتحدثون أصلاً عن التطور من قريب ولا بعيد ولم يشر إليه أحدهم رغم كثرة حديثهم عن الحيوانات شعراً ونثراً في بيئتهم من ظباء وإبل وغنم وكلاب إلخ... ولا **المعري** نفسه عُرف عنه أنه تكلم في ذلك بإكثارٍ ولا تقليلٍ ولا في أي موضعٍ آخر ولا أشار إليه.

والصواب: أن الشاعر هنا يتعجب من أحوال الإنسان المُحيرة وهو الذي نشأ من جماد (يقصد التراب الذي خلقه الله منه بنص القرآن والسنة وكل الرسالات السابقة عند اليهود والنصارى وغيرهم) لا أكثر ولا أقل.

ولو كان ما قالوه صحيحاً لكان الأنسب في البيت أن يذكر **المعري** حيواناً وليس جماداً؛ وذلك لأن الإنسان بزعمهم قد تطور من حيوان (سواء شبيه بالقرد أم لا) وليس جماد.

وللتأكيد: ففي الرابط التالي حديث عن بعض أمثلة البلاغة فيما يُعرف بتقديم المُسند إليه:

http://www.startimes.com/f.aspx?t=33105794

---

(١٠) هو أحمد بن عبد الله بن سليمان القضاعي التنوخي المعري (٣٦٣- ٤٤٩ هـ)، (٩٧٣-١٠٥٧م)، شاعر وفيلسوف وأديب عربي سوري، ولد وتوفي في معرة النعمان في الشمال السوري وإليها يُنسب.

حيث نقرأ من كلامهم في المثال الثاني (وهو البيت المذكور **للمعري**) قولهم:

" والداعي إلى هذا التقديم تمكينُ المُسند في ذهن المتلقّي، لأنَّ في المُسند إليه "المبتدأ" هنا تشويقاً للتعرّف على خبره إذ جاء فيما يتّصل به أنّه شيءٌ حارتْ البريَّةُ بأمره، فالنفس تتساءل بشوق: ما هذا الذي حارت البريَّةُ فيه؟

ويأتي الجوابُ في الخبر: "حيوانٌ مُستحدثٌ من جماد" والمرادُ الإنسانُ وسائرُ ما خلق الله من تراب فنفخ فيه نسمة الحياة".

انتهى النقل من الرابط.

وقبل أن نتعرض بالنقد أيضاً لما قاله **جماله الدين الأفغاني** عن **أبي بكر بن بشرون** (والذي نقله **ابن خلدون** في مقدمته ثم نقله التطوريون منسوباً إلى ابن خلدون)؛ نرى من الأوفق الرد أولاً على ما نُسب إلى **إخوان الصفا** من القول بالتطور.

٣)) إخوان الصفا[١١]

حيث سنرى هنا خلطاً عملياً بين ما وضحناه سابقاً بخصوص (**السلسلة العظمى للوجود**) Great chain of being لتصنيف الموجودات من أدناها وهي الأرض والمعادن وصولاً إلى أعلاها وهو الملكوت والله، وبين ما قيل على أنه وصفٌ إسلاميٌ للتطور من نوع إلى نوع.

حيث جاء في (رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا ٢ / ١١١- ١١٥) التالي:

"الكائنات التي دون فلك القمر وهي أربعة أجناس: المعادن، والنبات، والحيوان، والإنسان، وذلك أن كل جنسٍ منها تحته أنواعٌ كثيرة، فمنها ما هو في أدون المراتب، ومنها ما هي في أشرفها وأعلاها، ومنها ما هي بين الطرفين، فأدون أطراف المعادن مما يلي التراب: الجص، والزاج، وأنواع الشبوب، والطرف الأشرف: الياقوت، والذهب الأحمر، والباقية: بين هذين الطرفين من الشرف والدناءة كما بينا في رسالة المعادن، وهكذا أيضًا حكمُ النبات: فإنها أنواعٌ كثيرةٌ متبائنةٌ متفاوتة، ولكن منها ما

(١١) إخوان الصفا وخلان الوفا هم جماعة تعتبر امتداد للفرقة الإسماعيلية الشيعية في البصرة بالعراق، ظهرت في القرن الثالث الهجري – العاشر الميلادي، وكان عملهم مُنصباً على مزج الفلسفات اليونانية والهندية والفارسية وغيرها بالإسلام، وكتبوا في ذلك قرابة ٥٠ رسالة هي التي اشتهرت فيما بعد باسم رسائل إخوان الصفا، ولأنهم كانوا يتبعون التقية مثل الشيعة والرافضة (أي إخفاء حقيقتهم عن الناس اتقاء أذى الناس لهم بسبب مخالفتهم لبعض عقائد الإسلام) فإن المعلومات عنهم قليلة، ويكاد يُعرف من أسماء بعضهم: محمد البستي (الشهير بالمقدسي)، وأبو الحسن الزنجاني، ومحمد النهرجوري، والعوضي، وزبير بن رفاعة.

هي في أدون الرتبة مما يلي رتبة المعادن، وهي خضـراء الدمن، ومنها ما هي في أشرف الرتبة مما يلي رتبة الحيوان، وهي شجرة النخل، واعلم يا أخي أن أول مرتبة الحيوان متصـلة بآخر مرتبة النبات، وآخر مرتبة الحيوان، متصـلة بأول مرتبة الإنسان، كما أن أول مرتبة النباتية متصلٌ بآخر مرتبة المعدنية، وأول مرتبة المعدنية متصلٌ بالتراب والماء كما بينا قبل ذلك، فأدون الحيوان وأنقصه هو الذي ليس له إلا حاسةٌ واحدةٌ فقط وهو الحلزون...... رتبة الحيوانية مما يلي رتبة الإنسانية لما كانت معدنًا للفضل، وينبوعًا للمناقب لم يستوعبها نوعٌ واحدٌ من الحيوان ولكن عدة أنواع، فمنها ما قارب رتبة الإنسانية بصورة جسده مثل القرد، ومنها ما قارب بالأخلاق النفسانية كالفرس في كثير من أخلاقه، ومنها كالطائر الإنساني أيضًا، ومثل الفيل في ذكائه، وكالببغاء والهزار ونحوهما من الأطيار الكثيرة الأصوات والألحان والنغمات، ومنها النحل اللطيف الصـانع....... فهذه الحيوانات في آخر رتبة الحيوان مما يلي رتبة الإنسان لما يظهر فيها من الفضائل الإنسانية، وأما باقي أنواع الحيوانات فهي فيما بين هاتين المرتبتين".

انتهى كلامهم، وكما نرى هو تمثيل عملي تماماً لتصـنيف وترتيب **سـلسـلة الوجود العظمى** مما تحت القمر (وهي الإنسـان ثم الحيوان ثم النبات ثم المعادن)، وهم يُعطون تميزاً **للنخل** نتيجة حديث ضعيف عن النبي صلى الله عليه وسلم سنقرأه عندما نصل لابن مسكويه بإذن الله)، فهم أعطوا نظرتهم الفلسفية في دونية وسمو كل نفس لهذه التصـنيفات كما وضحوا عدة تشابهات بين بعض الحيوانات وبين الإنسـان بنحو من النواحي (وليس الشكل فقط كما في القرود وأشباه القرود عند التطوريين). وعليه فهم بريئين من نسبة القول بالتطور إليهم. وإليكم النقل التالي أيضـاً والذي يحسم المسـألة تماماً ويوضح رؤيتهم الموافقة للدين في ذلك...

حيث يقول **إخوان الصفا** وبكل وضوح في نفس رسائلهم (٢ /١٢١):

فصل واعلم يا اخي بان الحيوانات التامة الخلقة كلها كان بدء كونها من الطين اولاذكرا وانثى ثم توالدت وتناسلت وانتشرت في الارض سهلا وجبلا وبرآ وبحرا من تحت خط الاستواء حيث يكون الليل والنهار متساويين والزمان ابدا معتدلا هنالك بين الحر والبرد والمواد المتهيئة لقبول الصورة موجودة دائما وهنالك ايضا تكون ابونا ادم ابو البشر وزوجته ثم توالدا وتناسلت اولادهما وامتلات الارض منهم سهلا وجبلا وبرا وبحرا الى يومنا هذا ثم اعلم يا اخي بان الحيوانات كلها متقدمة الوجود على الانسان بالزمان لانها له ولاجله وكل شئ هو من اجل شئ اخر فهو متقدم الوجود عليه

"**فصل: واعلم يا أخي بأن الحيوانات التامة الخلقة كلها كان بدء كونها من الطين أولاً ذكراً وأنثى، ثم توالـدت وتناسـلت وانتشرت في الأرض سهلاً وجبلاً وبراً وبحراً من تحت خط الاستواء حيث يكون الليل والنهار متساويين والزمان أبداً معتدلاً هناك بين الحر والبرد، والمواد المتهيئة لقبول الصورة موجودة دائماً، وهناك أيضا تكون أبونا آدم أبو البشـر وزوجته .. ثم توالدا وتناسلت أولادهما وامتلأت الأرض منهم سهلاً وجبلاً وبراً وبحراً إلى يومنا هذا - ثم اعلم - يا أخي بأن الحيوانات كلها متقدمة الوجود على الإنسان بالزمان لأنها له ولأجله. وكل شيء هو من أجل شيء آخر فهو متقدم الوجود عليه**".

حيث من كلامهم نستخلص الآتي:

١)) القول بالخلق من طين (ولم يذكروا تطور شيء من شيء أو حيوان من آخر) بل وكانوا واضحين في أن الحيوانات كانت (تامة الخلقة) أثناء الخلق من طين، يعني لم تمر بأية مراحل تطورية (وهو ما نسميه بالخلق المباشر).

٢)) ترجيحهم للبيئة التي عاش فيها **آدم** و**حواء** أن تكون في المنطقة المعتدلة صيفاً وشتاءً وحراً وبرداً وليلاً ونهاراً ثم منها بدأ التناسل والانتشار في الأرض. (وهو موافق لكثير من الأبحاث التطورية نفسها عن الأصل الأفريقي للبشر).

٣)) إقرارهم بأن الحيوانات وجدت جميعاً قبل **آدم** عليه السلام، وهو موافق لظاهر القرآن والسنة حيث أعد الله تعالى الأرض لحياة **آدم** والبشر بما فيها هواءها وجبالها وماءها ومرعاها ونباتاتها وحيواناتها وبث فيها من كل دابة، ثم كان خلق **آدم** ونزوله إليها.

والآن... ماذا عن النقل الشهير الذي نقله **جمال الدين الأفغاني** وغيره عن **أبي بكر بن بشرون** أو ينسبونه بالجملة إلى **ابن خلدون** الذي ذكره في مقدمته؟

٤)) ابن خلدون[١٢]

وهو صاحب المقدمة الشهيرة التي تعد مرجعاً للتأريخ والعلوم في أوروبا والعالم إلى اليوم والمعروفة باسمه (**مقدمة ابن خلدون**)، حيث لم تسلم هي الأخرى من اقتطاع بعض فقرات كلامه منها لإظهاره وكأنه يشير إلى التطور، وإليكم ما اقتطعوه منه:

(١٢) هو عبد الرحمن بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (٧٣٢-٨٠٨هـ)، (١٣٣٢- ١٤٠٦م)، مؤرخ من شمال أفريقيا، تونسي المولد أندلسي حضرمي الأصل.

" إذ قال أبو بكر بن بشرون في رسالته لأبي السمح عرضاً في بحث الكيمياء: إن التراب يستحيل[١٣] نباتاً، والنبات يستحيل حيواناً، وإن أرفع المواليد هو الإنسان "الحيوان" وهو آخر الاستحالات الثلاثة وأرفعها... وإن أرفع مواليد التراب هو النبات، وهي أدنى طبقات الحيوان... سلسلة تنتهي عند الإنسان....الخ ".

والصواب:

أن هذا الكلام المُستقطع له سياق يشرح مُراد **ابن خلدون** منه والمعنى الذي يُشيرُ إليه بهذا النقل، تماماً كمَن اقتطع للأسف قوله تعالى: "**فويلٌ للمصلين**" فقط من سياق الآيات لينشرها بين المسلمين على أن الله تعالى يتوعد كل مَن يصلي بالويل، في حين أن تكملة الآيات تقول:

"**فويلٌ للمصلين * الذين هم عن صلاتهم ساهون**" الماعون ٤- ٥.

فأما السياق الذي اقتطعوه منه فقد كان يتحدث فيه **ابن خلدون** عن مفهوم (**علم الكيمياء**) في بداياته التي كان معروفاً بها في الماضي (وهي أفكار السحر و**الخيمياء** و**السيمياء** كما قلنا) وذلك كما جاء بالتفصيل في: مقدمة **ابن خلدون**، الفصل الثالث والعشرون، في علم الكيمياء، صـ ٥٠٤، وهذا رابط للاطلاع:

http://al-hakawati.net/arabic/civilizations/book3fm.asp

أو القراءة من بداية الرابط التالي ويمكن تقليب الصفحات تباعاً:

http://islamport.com/w/tkh/Web/345/322.htm

حيث تحدث كيف أن علم **الكيمياء** قديماً (**الخيمياء** و**السيمياء**) كان يتعلق بالسحر والرموز والتنجيم والسعي خلف تحويل جوهر الأشياء أو نفسها من بعضها إلى بعض، مثل تحويل التراب أو بعض المعادن كالرصاص إلى الذهب والفضة، فيقول (ونلاحظ أنه يحكي فقط ولا يوافق كل ما يُقال):

"علم ينظر في المادة التي يتم بها كون الذهب والفضة بالصناعة، ويشرح العمل الذي يوصل إلى ذلك، فيتصفحون المكونات كلها بعد معرفة أمزجتها وقواها لعلهم يعثرون على المادة المستعدة لذلك، حتى من الفضلات الحيوانية كالعظام والريش والبيض والعذرات فضلاً عن المعادن. ثم يشرح الأعمال التي تخرج بها تلك المادة من القوة إلى الفعل، مثل حل الأجسام إلى أجزائها الطبيعية بالتصعيد والتقطير وجمد الذائب منها بالتكليس، وإمهاء الصلب بالقهر والصلابة وأمثال ذلك. وفي زعمهم أنه يخرج بهذه الصناعات كلها جسم طبيعي يسمونه الإكسير، وأنه يلقى منه على الجسم

---

(١٣) يعني يتحول إلى، ومنه استحال الشيء أي تحول وتغير.

المعدني المستعد لقبول صورة الذهب أو الفضة بالاستعداد القريب من الفعل، مثل الرصاص والقصدير والنحاس بعد أن يحمى بالنار فيعود ذهباً إبريزاً. ويكنون عن ذلك الإكسير إذا ألغزوا اصطلاحاتهم بالروح، وعن الجسم الذي يُلقى عليه بالجسد. فشرح هذه الاصطلاحات وصورة هذا العمل الصناعي الذي يقلب هذه الأجساد المستعدة إلى صورة الذهب والفضة هو علم الكيمياء".

انتهى كلامه وما نقله عن معتقدات الكيمياء القديمة التي كانت تسعى للوصل بين أنواع تصنيفات (**السلسلة العظمى للوجود** Great chain of being)، وهنا ملاحظات هامة مثل:

١)) قوله: "**وفي زعمهم أنه يخرج بهذه الصناعات ... إلخ**" ما يعني أنه غير مُقر أو موافق كما قلنا لكل ما ينقله عنهم لعلمه بأنها خرافات ووهم.

٢)) أن هناك مصطلحات غريبة اتفق هؤلاء عليها لا يعلمها إلا هم، مما دعا **ابن خلدون** لشرحها لكل مَن يقرأها لأول مرة مثل كلمات (الروح) و (الجسد) عندما قال: "**ويكنون عن ذلك الإكسير إذا ألغزوا اصطلاحاتهم بالروح، وعن الجسم الذي يُلقى عليه بالجسد** "

والسؤال: ماذا يحدث لو اقتطعنا كلاماً **لابن خلدون** بعد ذلك فيه كلمات مثل (الروح) و (الجسد) بدون أن ننقل الفقرة التي نقلناها الآن والتي فيها شرح لهما؟! هل كان سيفهم أحد المراد منهما بالضبط؟

إن الإجابة على هذا السؤال تشمل الإجابة على الاقتطاع الذي يمارسه التطوريون مع كلام **ابن خلدون** عن التحول أو استحالة كذا إلى كذا.. إذ المقصود بها تحول مادة إلى مادة أو صورة إلى صورة بخرافاتهم وسحرهم كما رأينا وليس المقصود به التطور من قريب أو بعيد.

ولزيادة التأكيد: سوف نعرض فقرة أخرى الآن من كلام **ابن خلدون** المنقول تتحدث مثلاً عن (الأحجار) و (الجواهر) أو (الأرواح) و (الأجساد) والسؤال: هل سيتخيل أي أحد ما هو المراد منها أبداً إن لم يقرأ الكلام السابق من أوله وسياقه كاملاً؟؟ والفقرة سنعرضها من الرابط التالي:

http://islamport.com/w/tkh/Web/345/323.htm

"وقد ينبغي لك أن تعلم أن اختلاط اللطيف باللطيف أهون من اختلاط الغليظ بالغليظ، وإنما أريد بذلك التشاكل في الأرواح والأجساد، لأن الأشياء تتصل بأشكالها. وذكرت لك ذلك لتعلم أن العمل أوفق وأيسر من الطبائع اللطائف الروحانية منها من الغليظة

الجسمانية. وقد يتصور في العقل أن الأحجار أقوى وأصبر على النار من الأرواح، كما ترى أن الذهب والحديد والنحاس أصبر على النار من الكبريت والزئبق وغيرهما من الأرواح. فأقول إن الأجساد قد كانت أرواحاً في بدنها، فلما أصابها حر الكيان قلبها أجساداً لزجة غليظة، فلم تقدر النار على أكلها لإفراط غلظها وتلزجها. فإذا أفرطت النار عليها، صيرتها أرواحاً، كما كانت أول خلقها. وإن تلك الأرواح اللطيفة، إذا أصابتها النار أبقت ولم تقدر على البقاء عليها، فينبغي لك أن تعلم ما صير الأجساد في هذه الحالة، وصير الأرواح في هذا الحال، فهو أجل ما تعرفه".

إن الرجل هنا (وهو **ابن بشرون** الذي نقل كلامه **ابن خلدون**) يتحدث عن مجموعة من الأمور العجيبة عن **الكيمياء** القديمة واعتقاداتها في إمكانية استحالة (أي تحول) المواد، فيذكر منها ما يتحول بالامتزاج، ومنها ما يتحول من الذات إلى ذات أخرى بتأثير النار (أو الحر) التي هي الأصل عندهم في تحويل أو تغيير الأشياء أكثر من غيرها، وبالطبع كلامهم مخلوط بالفلسفة لأن النار ستفصل الخبث عن الجسد والنفس، وللاستزادة يمكن قراءة النصف الأخير من الرابط التالي:

http://islamport.com/w/tkh/Web/345/324.htm

وحتى لا نطيل في هذه الفقرة أكثر من ذلك، فسنستعرض مرة أخيرة الكلام الذي نقله **ابن خلدون** والذي استقطعوه من سياقه ليظهر في غير معناه (مثلما فعل **جمال الدين الأفغاني** وغيره للأسف) ولكن هذه المرة سنزيد من الاقتطاع لنتأكد من المراد والمعنى وفق السياق وليس وفق التطور وذلك من الرابط التالي:

http://islamport.com/w/tkh/Web/345/325.htm

حيث يقول عن الحجر الذي فيه سر التحول أو إمكانيته المزعومة عندهم:

"ولنقل الآن على الحجر الذي يمكن منه العمل على ما ذكرته الفلاسفة، فقد اختلفوا فيه. فمنهم مَن زعم أنه في الحيوان، ومنهم مَن زعم أنه في النبات، ومنهم مَن زعم أنه في المعادن، ومنهم مَن زعم أنه في الجميع. وهذه الدعاوى ليست بنا حاجة إلى استقصائها ومناظرة أهلها عليها، لأن الكلام يطول جدا. وقد قلت فيما تقدم: إن العمل يكون في كل شيء بالقوة لأن الطبائع موجودة في كل شيء فهو كذلك، فنريد أن تعلم من أي شيء يكون العمل بالقوة والفعل، فنقصد إلى ما قاله الحراني، إن الصبغ كله أحد صبغين: إما صبغ جسد، كالزعفران في الثوب الأبيض حتى يحول فيه، وهو مضمحل منتقض التركيب، والصبغ الثاني تقليب الجوهر من جوهر نفسه إلى جوهر غيره ولونه، كتقليب الشجر بل التراب إلى نفسه، وقلب الحيوان والنبات إلى نفسه حتى يصير التراب نباتاً والنبات حيواناً، ولا يكون إلا بالروح الحي والكيان الفاعل، الذي له توليد الأجرام وقلب الأعيان. فإذا كان هذا هكذا، فنقول: إن العمل لا بد أن

يكون إما في الحيوان وإما في النبات، وبرهان ذلك أنهما مطبوعان على الغذاء وبه قوامهما وتمامهما. فأما النبات فليس فيه ما في الحيوان من اللطافة والقوة، ولذلك قل خوض الحكماء فيه. وأما الحيوان فهو آخر الاستحالات الثلاث ونهايتها، وذلك أن المعدن يستحيل نباتاً، والنبات يستحيل حيواناً، والحيوان لا يستحيل إلى شيء هو ألطف منه، إلا أن ينعكس راجعاً إلى الغلظ".

انتهى كلامه.

وكما نرى فالحديث كله يتكلم عن محاولات كيميائية فلسفية قديمة (سيمياء وخيمياء) لتحويل الموجودات إلى بعضها البعض (**لاحظوا تحويل وليس تطور**)، وهذا الأمر متواتر في كل كتب العلماء الذين زعم التطوريون أنهم تحدثوا عن (التطور) في الإسلام للأسف.

٥)) ابن مسكويه[١٤]

وهو المشهور باسم: (صاحب تجارب الأمم) وهو أحد أشهر كتبه التي تكلم فيها عن تاريخ العالم إلى وقته، وقد اعتنى **ابن مسكويه** عناية خاصة بالأخلاق، ويعتبر من أوائل علماء المسلمين الذين تحدثوا عن الأخلاق بالأسلوب العلمي الحديث المألوف للعالم اليوم، وله في ذلك كتاب شهير هو (تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق) وكذلك له كتابان مميزان وهما (الفوز الأكبر) و (الفوز الأصغر)، وله عدة كتب أخرى في الأدوية والأطعمة والأشربة، ولكن كتبه الفكرية لاقت رواجاً كبيراً ولا زالت محفوظة في أكبر المكتبات العالمية إلى اليوم، وذلك مثل كتابه عن (العدل)، وكتابه (أجوبة وأسئلة في النفس والعقل).

جديرٌ بالذكر أنه عندما يتحدث **ابن مسكويه** عن النفس فهو يتحدث عنها في مقابل أرواح الموجودات جميعاً، وبذلك فهي تتدرج من الدنو إلى العلو، حيث تقع أدنى الأنفس أو أقلها شأناً في مركز الأرض (حيث المعادن والجمادات) ثم كلما ارتقت في الموجودات إلى الأعلى زادت شرفاً وتصنيفاً (وهو نفس ما أشرنا إليه مراراً وتكراراً من نظرة الأولين إلى **السلسلة العظمى للوجود** Great chain of being).

فهي ترتقي مثلاً إلى أن تسكن في النباتات، ثم هو يرتب النباتات فيجعل أول رتبة هي الحشائش التي لا بذور فيها فهي أقرب شيء للصخور والجمادات، ثم باقي النباتات، ثم

(١٤) هو أحمد بن يعقوب، أبو علي والملقب بـ أبي علي الخازن (٣٣٠- ٤٢١ هـ) (٩٣٢-١٠٣٠م)، من مواليد الري بإيران، وقد ذكر ياقوت الحموي في معجم الأدباء أنه كان مجوسياً وأسلم، وهو من مشاهير المفكرين المسلمين الذين عنوا عناية خاصة بالنفس والأخلاق.

الحيوانات، وصولاً إلى أقرب الحيوانات شبهاً بالإنسان وهي القرود، ثم البشر، ثم هو يرتب البشر كذلك فجعل أدناهم مَن لا يعرفون الحكمة ولا يفهمونها ولا يتعلمونها، فهؤلاء بصورتهم هذه يستحقون أن يكونوا عبيداً لجلافة عيشهم وفهمهم، وصولاً إلى الإنسان الحكيم والذكي صاحب الصناعات، إلى أن ينتهي إلى **الأنبياء** وهم أشرف الخلق من البشر.

فإذا فهمنا كل ذلك وأنه يتحدث عن (ترقي منزلة النفس) بين سلسلة الموجودات كما قلنا وليس التطور أو التحول من نوع إلى آخر؛ سنفهم كيف وقع الخطأ عند مَن اقتطعوا صوراً من كلام **ابن مسكويه** جهلاً أو عمداً بعيداً عن سياقها ليصوروا للناس أنه يتحدث عن (تطور الأنواع) من بعضها إلى البعض، وإليكم التفاصيل....

حيث قام بتقسيم كتابه (الفوز الأصغر) إلى ثلاث مسائل:

المسألة الأولى:

في إثبات الصانع، وهي عشرة فصول (يقصد الخالق عز وجل).

المسألة الثانية:

في النفس وأحوالها، وهي في عشرة فصول أيضاً.

المسألة الثالثة:

في النبوات، وهي عشرة فصول كذلك.

فكما نرى أن الكتاب من أوله وهو يتحدث عن (الصانع) عز وجل، ومجرد ذكره للصانع وحده ينفي العشوائية التطورية التي يحاولون إلصاقها بكلام **ابن مسكويه**، وأما الصور التي اقتطعوها من كلامه فهي من المسألة الثالثة ومن أول فصولها عن النبوات، حيث لما أراد أن يبين للقارئ مقدار شرف وعلو نفس الأنبياء عن باقي الأنفس المخلوقة في الكون والبشر قام بتسمية الفصل الأول بـ:

"مراتب موجودات العالم واتصال بعضها ببعض".

وهو من أول صفحة ٨٥ من طبعة بيروت ١٣١٩هـ/ ١٩٠٢م، وإليكم رابط تنزيل الكتاب pdf لمَن يريد:

http://www.al-mostafa.info/data/arabic/depot3/gap.php?file=i003413.pdf

وننقل لكم مقتطفات من أول الفصل ونهايته لتروا لماذا لا ينقلها التطوريون مع الكلام الذي يقتطعونه منه (وخصوصاً نهاية الفصل لأن فيها شرح وإجمال لهدفه من الفصل كله كما سنرى)...

حيث يقول في أول الفصل صـ ٨٥:

"إنه وإن كان قصدنا الأول الكلام على النبوات فإنا لا نصل إلى تحقيقه إلا بعد ذكر مراتب الموجودات والحكمة السارية في جميعها التي نشأت من قبل الواحد الحق فأعطت كل مرتبة قسطها ووقتها قدر استحقاقها بالميزان العدل".

يقصد أن كل موجود قدر الله تعالى ظهوره على الأرض في الوقت المناسب له لتكامل الحياة فيها ومنافعها التي خلقها في النهاية للإنسان وتهيئتها لعيشه، ثم يتابع في نفس الصفحة:

"فنقول: أما اتصال أجرام الموجودات بعضها ببعض وأن الكل واحد إذا أخذ من مركز الأرض إلى أن ينتهي إلى السطح الأقصى من الفلك التاسع (يقصد آخر السماوات تحت عرش الرحمن جل وعلا) **وأنه حيوان واحد وأجزاء مختلفة فهو أمر قد فرغ منه الحكيم واستقصاه"**.

وهو يشير هنا إلى وحدة الخلق الدالة على وحدة الخالق عز وجل بعكس الملاحدة والطبائعيين (أي القائلين بالطبيعة) الذين يزعمون الصدفة والعشوائية ثم نجد كل هذا التوافق والانسجام في الكون والمخلوقات يناقض مزاعمهم، ثم يقول في صـ ٨٦:

"فأما تقسيم أجزاء هذا الكل، فإنه بالقسمة الأولى ينقسم إلى قسمين إلى عالم الكون والفساد وهو عالمنا. وإلى العالم الذي لا كون فيه ولا فساد وهو السماء والأفلاك...".

ثم يقول في نفس الصفحة وهو يشرح رؤيته في اتصال الموجودات بعضها البعض (وليس على سبيل التطور ولكن الترقي والترتيب والمنزلة والشرف كما سيأتي في مواضع أخرى):

"فأما اتصال الموجودات التي نقول أن الحكمة سارية فيها حتى إذا أوجدتها وأظهرت التدبير المتقن من قبل الواحد الحق في جميعها حتى اتصل آخر كل نوع بأول نوع آخر فصار كالسلك الواحد الذي ينظم خرزاً كثيراً على تأليف صحيح وحتى جاء من الجميع عقد واحد فهو الذي ننبه عليه بالدلالة بمعونة الله".

وأما العجيب هنا فهو غض التطوريين طرفهم عما قاله **ابن مسكويه** في كتابه في هذا الموضع عن (عمتنا النخلة)، حيث لعدم تخصصه في علم الحديث فقد أقحم في نفس الموضع الذي ينقل التطوريون منه حديثاً موضوعاً كذباً على النبي صلى الله عليه وسلم ألا وهو:

"**أكرموا عمتكم النخلة فإنها خُلقت من فضلة طينة أبيكم آدم، وليس من الشجر شجرة أكرم على الله تعالى من شجرة وَلدت تحتها مريم ابنت عمران، فاطعموا نساءكم الولد**[١٥] **الرطب، فإن لم يكن فتمر**".

ذكره **السيوطي** في الجامع الصغير، وكذلك **أبو حاتم السجستاني** المتوفي في ٢٥٥هـ، ومن ضمن ما زاد فيه أنها الشجر الوحيد الذي يُلقح قاصداً بذلك كتلقيح الحيوانات من ذكر وأنثى.

والحديث لا يصح كما قلنا، فهو موضوع على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد قال بوضعه أئمة أهل العلم المُحققين وذكروه في كتبهم مثل الضعفاء **للعقيلي** (١٣٩٥/٤)، والمجروحين **لابن حبان** (٤٤/٣)، والكامل **لابن عدي** (٤٣١/٦)، والموضوعات **لابن الجوزي** (١٨٤/١)، والسلسلة الضعيفة **للألباني** (٤٢٧/١-٢٦٣-٢٨٣) وكذلك قال بوضعه في ضعيف الجامع الصغير.

ولذلك.. يواصل **ابن مسكويه** قوله في صـ ٨٨:

"**ويتدرج أيضاً في قبول هذا الأثر من ظهور الشرف** (لاحظوا أنه يتحدث عن المنزلة والشرف النفسي في الموجودات) **إلى أن ينتهي إلى رتبة الكرم والنخل. فإذا انتهى إلى ذلك صار في الأفق الأعلى من النبات وصار بحيث إن زاد قبوله لهذا الأثر لم يبق له صورة النبات وقبل حينئذ صورة الحيوان، وذلك أن النخل قد بلغ من شرفه على النبات إلى أن حصل فيه نسبة قوية من الحيوان ومشابهة كثيرة منه. أولها أن الذكر منها متميز عن الأنثى وأنه يحتاج إلى تلقيح ليتم حمله وهو كالسفاد في الحيوان، وله مع ذلك مبدأ آخر غير عروقه وأصله، أعني الجمار الذي هو كالدماغ في الحيوان، فإن عُرضت له آفة تلف**".

ومن هنا نختم ونوجز كل ما سبق بالانتقال مباشرة إلى آخر هذا الفصل لنرى كيف أن الحديث كله يدور حول تصنيف ودرجات الشرف والمنزلة وليس (التحول ولا التطور) لأن الإنسان لن يتحول أو يتطور إلى الملائكة أو عليين كما سنقرأ الآن صـ ٩١- ٩٢:

"**فإذا بلغ الإنسان هذه الرتبة** (يقصد أشرف منازل النفس والفهم والألمعية والحكمة) **فقد قارب البلوغ إلى أفقه الذي يتصل به، إلى أفق الملائكة، أعني الوجود الذي هو أعلى من الوجود الإنساني ولم يبق بينه وبين مرتبة عليين إلا درجات يسيرة يُدركها. وإذا رتبنا قوى العالم الصغير وشرحنا اتصال قواه بعضها ببعض وكيف ترتقي قوة الحواس منه إلى ما هو أعلى منها، ومنها إلى ما بعدها حتى يجاور المَلَك** (يقصد مثل جبريل عليه السلام) **ويناسبه ويستمد منه** (يقصد مثل تلقي الوحي عنه)، **فهناك يتبين**

(١٥) يعني اللاتي ولدن للتو، كما طعمت مريم عليها السلام الرطب عندما ولدت لتوها عيسى عليه السلام.

غاية أفق الإنسـانية ونـهاية شـرفه وكيفية مرتبته واتصـال الروح المُسمى في القرآن الروح القدس، فيطلع الناظر في هذه المراتب على صـور الموجود ويفهمه ويعرف شرف الرسالة وعلو درجة النبوة إن شاء الله تعالى".

الغيب من وراء ستر رقيق . فاذا بلغ الانسان هذه الرتبة فقد
قارب البلوغ الى افقه الذي يتصل به الى افق الملائكة اعني
الوجود الذي هو اعلى من الوجود الانساني ولم يبق بينه وبين
مرتبة عليين الا درجات يسيرة يدركها . واذ رتبنا قوى العالم

الصغير وشرحنا اتصال قواه بعضها ببعض وكيف ترتقي قوة
الحواس منه الى ما هو اعلى منها ومنها الى ما بعدها حتى يجاور
الملك ويناسبه ويستمد منه فهناك يتبين غاية افق الانسانية ونهاية
شرفه وكيفية مرتبته واتصال الروح المسمى في القرآن الروح
القدس فيطلع الناظر في هذه المراتب على صور الموجود ويفهمه
ويعرف شرف الرسالة وعلو درجة النبوة ان شاء الله تعالى

صورة من خاتمة الفصل الأول صـ ٩١- ٩٢ من المسألة الثالثة (النبوات) من كتاب الفوز الأصغر **لابن مسكويه**.

٦)) أرسطو(١٦) وابن رشد(١٧)

وسبب ذكرهما معاً رغم ما يفصل بينهما من قرابة ١٤٠٠ عام هو أن **ابن رشد** يُعد من أشهر مَن تأثروا بفكر وفلسفة **أرسطو** وكان يُعظمه كثيراً، بل و هو الذي نقل أغلب كتب

(١٦) أرِسطو Aristotle أو أرسطوطاليس أو أرسطاطاليس ولد عام ٣٨٤ قبل الميلاد وتوفي في ٣٢٢ قبل الميلاد، وهو فيلسوف يوناني ويعتبر أشهر تلامذة أفلاطون، وهو معلم الإسكندر الأكبر المقدوني، وواحد من أشـهر المفكرين عبر التاريخ وخاصـة باهتماماته العديدة في شـتى أبواب العلوم والفكر والفن، وكان يعتمد على المدرسـة العقلية في التفكير والتحليل والوصـول إلى النتائج بعيداً عن التجريب، وهو ما تداركه المنهج التجريبي عند المسلمين بعد ذلك.

(١٧) هو أبو الوليد: محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن أحمد بن رشـد Averroes (٥٢٠-٥٩٥هـ) (١١٢٦- ١١٩٨م) عالم أندلسي مسلم كان مفكراً وفيلسوفاً وطبيباً وفقيهاً و قاضياً و فلكياً وفيزيائياً، وهو حفيد العالم القرطبي المالكي الشـهير ابن رشـد (ولذلك يسـمونه ابن رشـد الحفيد تمييزاً عنه) إلا أنه اشتغل بالفلسفة ووقع بسببها في أخطاء عقدية ومنهجية نبه عليها العلماء.

أرسطو إلى اللغة العربية وقام بتلخيصها وشرحها لدرجة إقبال الأوروبيين أنفسهم عليها فترجموها من العربية إلى لغاتهم، ولذلك كان يسميه بعضهم كما قال الفيلسوف **توما الإكويني** بـ (الشارح) أو (المُعلق)، وكذلك شرح **ابن رشد** أيضاً كتاب (الجمهورية) **لأفلاطون** أستاذ **أرسطو**، ومن هنا نستطيع أن نفهم لماذا يؤسس فيلسوفٌ إيطالي مثل **بيترو بمبوناتسي** مدرسة فلسفية باسم (**المدرسة الأرسطية الرشدية**).

ولأن الفلسفة قامت بعيداً عن الوحي مُعتمدة على العقل البشري فقط؛ فقد وقع بينها وبين الدين الإسلامي خلافات عديدة، ففي حين يُعد العقل ناقصاً في علومه التي يكتسبها؛ فإن الدين يعتمد على الوحي من العليم الخبير، وفي حين العقول تختلف وتتمايز من فيلسوف إلى آخر كلٌ حسب مَلكاته واجتهاداته؛ فإن الوحي واحد لا يختلف، وفي الوقت الذي يُشجع الدين فيه العقلَ على التفكير في آيات الله أو الخالق للوقوف على الكثير من أوجه عظمته وصفاته وكماله بعكس التفكير في الغيب أو في ذات الله والذي لا طاقة للعقل به ولا سبيل له إلا الوحي؛ نجد الفلسفة لا تتوقف عند هذا الحد ولا إشكال لديها في البحث في ذات الله وافتراض الافتراضات التي ما انزل الله بها من سلطان.

ولهذا كله وغيره وقعت مشاكل كثيرة بين **ابن رشد** وبين علماء عصره وبلده لخوضه في أمور العقيدة والغيب بأصول فلسفية بعيداً عن الوحي الذي أكرمهم الله به في الإسلام، إلى أن أبعده السلطان **أبو يوسف يعقوب** إلى مراكش التي قضى فيها بقية حياته.

وفي عام ٢٠٠٣م خرج علينا **جون أفري** John Avery في كتابه: **نظرية المعلومات والتطور**Information theory and evolution بقوله الغريب في صـ ٢ بأن **ابن رشد الحفيد** قال بالتطور خلفاً **لأرسطو**، وأن كتابات **ابن رشد** قد أحدثت صدمةً للقارئ المسلم والنصراني على السواء. بل وأخذ يؤلف تاريخاً وهمياً لظهور التطور في أوروبا كنتيجة لتأثر الأوروبيين بفكر **ابن رشد** وأنه هو الذي نمت منه بذرة الداروينية بعد ذلك.

فهل صدق **جون أفري** حقاً؟؟ وهل قال **أرسطو** أصلاً بالتطور حتى ينقله عنه **ابن رشد** أو غيره؟؟ هذا ما سنراه الآن...

فأما بالنسبة **لأرسطو**....

فإنه من أسهل ما يكون نفي هذه المزاعم، وذلك لأن كل قارئ لكتابات **أرسطو** نفسه (سواء بلغته اليونانية أو بعد ترجماتها لباقي اللغات العربية والأوروبية) فلن يجد له ولم يشتهر عنه أبداً أنه قال بالتطور الدارويني الذي زعمه **جون أفري**.

يقول الدكتور **حسام الدين حامد**(١٨):

"بل القول بثبات الأنواع مُشـــتهرٌ عنه بما يغني عن التوثيق، حتى أن بعض الباحثين في تاريخ الفلسفة يرى أن أرسطو هو أصل القول بثبات الأنواع في الفكر الإنساني، وهذه وإن كانت مبالغةً لا دليل عليها: إلا أنها تكفي في بيان مخالفة آفري وشططه في نسبة أرسطو للقول بالتطور، وقد تبعه في هذه النسبة موقع aboutdarwin.com **للأسف حيث ذكر الموقع أن أرسطو:**

"درس الحيوانات البحرية ووضـــع أنموذجًا للتطور لا يعتمد على الجينات، ووضـــع نظامًا لتصنيف جميع الحيوانات ".

الرابط:

http://www.aboutdarwin.com/literature/Pre_Dar.html

فالعجيب هنا أن **أرسطو** فعلاً قد درس الحيوانات البحرية وغير البحرية أيضـاً ولكن لم يُعرف عنه أنه ذكر ولو مرة واحدة أي كلمة عن التطور الدارويني أو وضـــع نموذجاً لذلك (وعلى مَن يدعي أن يأتي بالدليل من كتابات **أرسطو** نفسه وليس مجرد التقول كما فعلوا مع **إخوان الصفا** و**ابن خلدون** و**ابن مسكويه** وغيرهم)!!

فكل ما قرره **أرســـطو** وذكره في كتاباته هو اختلاف الحيوية في النباتات عن بعضـــها البعض، وكذا اختلافها في النباتات عن الحيوانات، ولم يقل بقابلية الأنواع للتحول إلى غيرها، ولم يقل أي شيء يشبه التطور الدارويني أو الذي يشيرون إليه.

ومن هنا نرى أنه حتى الفلاســـفة المشـــهورين الذين لن نجد في كلامهم إلا تصـــانيف معقولة وكلاماً عن **السلسلة العظمى للوجود** كما شرحناها وسنتأكد منها بعد قليل؛ فمن باب أولى أن الذين يزعمون أنهم نقلوا عنهم التطور (**كابن رشـــد**) هم منه براء وكما سنتأكد الآن بأنفسنا حتى لا يبقى شك.

حيث بالنسبة **لابن رشد**....

فرغم ما نقله إلينا تاريخ الصـراع الفكري بينه وبين معاصـريه حول العديد من مسـائل العقيدة والدين الشـائكة والهامة؛ فلم ينقل أي أحد منهم ولو قولاً واحداً أو مجرد إشـارة من **ابن رشـــد** تخص التطور من قريب أو بعيد. وحتى لا يتحجج أحدهم بأن الأمر كان (عادياً) لا يسـتلزم تسـليط الأضـواء عليه أو إثارة ضـجة حوله؛ فالرد يكون من كلام **جون أفري** نفسـه الذي زعم أن كلام **ابن رشـد** عن التطور قد تسـبب في (صـدمة) لكل

(١٨) في مقال له بعنوان: (خرافة نسبة نظرية التطور لأهل القبلة من قبل دارون) منتدى التوحيد.

من المسلمين والنصارى على حد سواء، وهذا يعني (إذا صح) أن الأمر اشتهر أو كان مشهوراً إلى درجة أن يسبب صدمة للجميع لمخالفته ظاهر القرآن والسنة ولمخالفته سفر التكوين في العهد القديم عند اليهود والنصارى.

فأين الأدلة على كل هذه المزاعم من كتابات **ابن رشد** نفسه باسم الكتاب والصفحة؟؟ لا نريد إحالات على كتب غربيين أجانب تحدثوا عن الأمر، نريد إحالات واضحة ومحددة من كتابات الرجل.

ولا يسعنا هنا إلا أن نختم بكلام مفيد للأستاذة الدكتورة **زينب عفيفي**(١٩) المتخصصة في كتابة ودراسة **ابن رشد** إذ تقول واصفة إدراك **أرسطو** و**ابن رشد** لتمام التوافق بين خلقة كل كائن حي وبين بيئته التي يعيش فيها مما يعبر بوضوح عن حكمة الخالق وغائيته من خلقه في تسلسل تصنيفي (ثابت) للكائنات الحية في السلسلة العظمى للوجود (أي ليس متغير بتحول أو تطور):

"والواقع أن فهمه (تقصد ابن رشد) **لتلك الكائنات كان قائماً على إدراكه لغاياتها ونشوئها وتطورها كما هو الحال عند أرسطو، فتطور هذه الكائنات لم يكن قائماً على أسس مادية فقط، بل على أسس غائية** (تقصد أنها لها غاية مخلوقة لها بحكمة وهدف) **وإن كان ذلك لم يبعده في دراسته لتلك الكائنات عن منهج المشاهدة والملاحظة والاستقصاء والتجربة مع التزامه بالأصول والمبادئ والعلل التي قررها من قبل واعتبرها مبادئ للموجودات، يقول يوسف كرم:**

إن الغائية تحكم تكيف الكائنات في البيئة، فكل كائنٍ في الطبيعة يحاول تحقيق كماله الممكن، والطبيعة تحقق هذا بدرجات متفاوتة ولذلك نجده متابعاً لأرسطو: يبدأ بالمواد المعدنية في أسفل، ثم النبات، ثم يصعد أكثر وأكثر إلى الحيوان الكامل، وأخيراً إلى الإنسان، وكانت فكرة الثبات وعدم التغير في العالم تحكمه (هل لاحظتم هذا القول عن الثبات وليس التغير والتحول والتطور؟!) **ولذلك كان يؤكد أن الأنواع علاقات ثابتة أبدية للكمال أو عدم الكمال، وهذه الأنواع خالدة أبد الدهور وهي توجد على الهيئة التي توجد عليها، وأن ما يطرأ عليها من تحولاتٍ كثيرة فإنها لا تمس جوهرها".**

المصدر:

كتاب العالم في فلسفة ابن رشد الطبيعية – د. زينب عفيفي صـ ١٤٨.

---

(١٩) الأستاذة الدكتورة زينب عفيفي شاكر عملت كأستاذ فلسفة ثم تقلدت منصب عميدة كلية الآداب جامعة المنوفية بمصر.

٧)) الجاحظ[٢٠]

لعل معظمنا يسمع عن شهرة **الجاحظ** كأديب ولاسيما كتابه العمدة والمرجع في أصول البلاغة والبيان وهو (**البيان والتبيين**)، ولكن هناك إنجاز آخر للجاحظ (علمي أقرب منه للأدب) ويعتبر أيضاً عمدة ومرجعاً في الأحياء (أو البيولوجيا) منذ هذا العصر القديم (القرنين الثاني والثالث الهجري) ولمدة قرون طويلة تلته في أوروبا والعالم الغربي ألا وهو كتابه (**الحيوان**).

ففي الوقت الذي انصب فيه اهتمام الأدباء المسلمين والعرب إذا تحدثوا عن حيوانات بيئتهم أن يستعرضوها من جوانبها الأخلاقية والسلوكية والجسمية في صور أدبية أو شعرية أو كمضارب للأمثال أو القصص والنوادر (مثل الحديث عن الجمال والقوة والشجاعة والوفاء والسرعة ويُسقطون ذلك أحياناً على الإنسان) إلا أن ما فعله وتميز فيه **الجاحظ** في كتابه (الحيوان) هو أنه جعله **كالموسوعة** (ولأول مرة بهذا الحجم والكيف) والتي جمعت معاً كل ما سبق من كتابات وأشعار عن الحيوانات (والذي يُعتبر من أساسيات الأدب في بيئته وعصره) إلى جانب التعرض العلمي والتفصيلي لحياة وتشريح وصفات الكثير جداً من تلك الكائنات الحية وتفاصيل حياتها وسلوكياتها كما يعرفها العالم المتحضر في علوم البيولوجيا اليوم.

والجميل أكثر في هذا الكتاب الفريد أنه قام بالتفريق بين الأفكار الوهمية والمغلوطة والقصص اللامعقولة والخرافية المرتبطة بالحيوانات أو بأنواع معينة خيالية منها؛ وبين الواقع وما يمليه العقل والمنطق من عدم تصديقها، وهو ما سننقل لكم منه أكثر من اقتباس بعد قليل.

وقد قام **الجاحظ** بتقسيم كتابه إلى ٧ مجلدات يدور فيها تارة مع اللغة والأدب والأشعار والأمثال والقصص التي لها علاقة بالحيوانات مع العرب خصيصاً وكذا الأمم المجاورة وتناقلته مجالسهم، وتارة أخرى يصف وصفاً سلوكياً هذه الحيوانات (سواء حشرات أو زواحف أو طيور أو ثدييات إلخ) وكذلك تصانيفها، وأيضاً عمليات **التهجين** فيها وما هو بخرافة مضحكة وما هو بحقيقة على حد علمه (وطبعاً كل ذلك بألفاظه ومصطلحاته الخاصة حيث كان يُسمي التهجين مثلاً بـ (**(النتاج المركب)**)، وكذلك تحدث عن التغييرات التي يُحدثها الناس في الحيوانات، حيث يستعرضها من جميع نواحيها بما فيها رأي الدين إذا وُجد، فمثلاً عملية **الإخصاء** وهي قطع خصيتي الذكور حتى لا تستطيع جماع الإناث، فقد تناول المسألة بوصفها التشريحي الدقيق، ثم تكلم عن

---

(٢٠) الجاحظ الكناني هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب بن فزارة الليثي الكناني البصري (١٥٩- ٢٥٥هـ) (٧٧٦- ٨٦٨م)، أديب مسلم من مشاهير الأدب في العصر العباسي، ولد في البصرة وتوفي فيها. لقبه الناس بالجاحظ لجحوظ عينيه (أي بروز مقلتيه إلى الأمام).

تداعياتها الصحية والجسمية والنفسية وخاصة إذا تمت في الإنسان، ثم تناول الموضوع من الناحية الفقهية حيث يقول **الجاحظ** أنه كيف حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم الإخصاء في الحيوانات؛ فكيف يرضاه الشرع الحكيم في الإنسان؟ ثم ساق أدلته الدينية على ذلك.

فإذا جئنا بعد كل ذلك إلى كلامه في كتابه والذي أخذه الغربيون على أنه حديثاً عن التطور؛ فسنجده لم يخرج عن كل الصور التي مرت بنا في الأمثلة السابقة، فهو إما يتحدث عن رتب وتصانيف الموجودات (وفق ما كان معروفاً من قبل في **السلسلة العظمى للوجود** Great chain of being بدءً من الجمادات وانتهاءً بعالم الملكوت والإله أو الرب)، وإما يتحدث عن عشرات الصور المتعلقة بمدى ملاءمة كل كائن حي لبيئته التي يعيش فيها تماماً بتمام، وكذلك قدراته المدهشة التي حباه الله تعالى بها **للتكيف** مع شتى المتغيرات (وسنلاحظ في طول الكتاب ذي الـ ٧ مجلدات أنه يربط كل ذلك دوماً بتقدير وحكمة الباري عز وجل وليس الصدفة والعشوائية العمياء والطبيعية الصماء وهو ما ينفي أية علاقة بين الجاحظ وبين أفكار ومبادئ الداروينية والتطور بعكس ما يدعي التطوريون).

إذن...

هذا كله يُحسب **للجاحظ** ودقة ملاحظته وجمعه للعديد من مظاهر التكيف Adaptation (وليس التطور Evolution)، وخصوصاً ما يقع للنوع الواحد إذا انتقل من مكان لآخر فيكون له في المكان الجديد حال جديد (وهو ما يسميه التطوريون بالتطور **الأصغر** أو المايكرو Micro-evolution ويزعمون أنه هو الذي يوصل مع آلاف وملايين السنين إلى التطور **الأكبر** أو الماكرو Macro-evolution).

الجديد هنا هذه المرة مع **الجاحظ**، أننا سنجد أكثر المنقول عنه والمتداول على لسانه أو منسوباً إليه في الإنترنت هو مجرد كلام عام (قصصي) من وجهة نظر الكاتب أو الشخص صاحب الموضوع أو المقال؛ ولا يوجد الاستشهاد بنص واحد غالباً من كلام **الجاحظ** نفسه. بل وكل مَن يعرف لغة **الجاحظ** في كتاباته وعصره سيستطيع بسهولة جداً التمييز بينها وبين ما يُنقل على أنه من كلامه أو تقريراته للأسف، ولنأخذ أمثلة على ذلك من الويكيبديا والمدونات.

ففي **الويكيبديا**....

وهي الموسوعة العالمية الحرة نجد مقالاً بعنوان: **"تاريخ الفكر التطوري"** حيث قاموا بإدراج عنوان فرعي آخر باسم: **"الفلسفة الإسلامية وصراع البقاء"** الرابط:

https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AA%D8%A7%D8%B1%D9%8A%D8%AE_%D8%A7%D9%84%D9%81%D9%83%D8%B1_%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B7%D9%88%D8%B1%D9%8A#.D8.A7.D9.84.D9.81.D9.84.D8.B3.D9.81.D8.A9_.D8.A7.D9.84.D8.A5.D8.B3.D9.84.D8.A7.D9.85.D9.8A.D8.A9_.D9.88.D8.B5.D8.B1.D8.A7.D8.B9_.D8.A7.D9.84.D8.A8.D9.82.D8.A7.D8.A1

ووضعوا فيه الكلام التالي عن **الجاحظ** من ضمن ما وضعوا:

"كان الجاحظ أول أحيائي وفيلسوف مسلم يتكهن بالتطور تفصيلياً في القرن التاسع للميلاد. في كتابه الحيوان، أخذ بعين الاعتبار التأثيرات البيئية على فرص الحيوان للبقاء،[١٠][١١] ووصف الصراع من أجل البقاء، وكتب الجاحظ أيضاً عن سلاسل الغذاء.[١٢] يعتبر تكهن الجاحظ عن تأثير البيئة على الحيوانات طورت نوع مبكر من نظريات التطور. ووصـــف الصـــراع من أجل البقاء حيث توقع فيه الاصـــطفاء الطبيعي.[١٠]".

وبالطبع الكلام واضح في نسبة هذه الأفكار (بمعانيها التطورية) إلى الجاحظ، فإذا أردنا ان نطلع على التوثيقات على هذه المزاعم بواسطة أرقام الحواشي الموضوعة في الفقرة (وهي أرقام [١٠] [١١] [١٢]) فلن نجدا مرجعاً واحداً من كلام **الجاحظ** نفســـه أو من كتابه. وإليكم الحواشي بالترتيب:

المرجع رقم ١٠:

Conway Zirkle (1941). Natural Selection before the "Origin of Species", Proceedings of the American Philosophical Society 84, .pp. 71–123

المرجع رقم ١١:

Mehmet Bayrakdar (Third Quarter, 1983). "Al-Jahiz And the Rise .of Biological Evolutionism", The Islamic Quarterly. London

المرجع رقم ١٢:

Frank N. Egerton, "A History of the Ecological Sciences, Part 6: Arabic Language Science – Origins and Zoological", Bulletin of the Ecological Society of America, April 2002: 142–146

العجيب هنا أن ملاحظة بعض مظاهر تميز الأفراد الأقوى والأفضل في فصيلتها هو شيء طبيعي ولا يحتاج (**لإقحام**) التطور فيه، فمعلوم لأصغر طفل أن الغزال الأسرع من بين أفراد مجموعته ستكون فرصة نجاته من الافتراس أكبر، هذا كله يدخل تحت مظلة (الفهم العادي) لأي ناظر في الحياة أو الكائنات الحية وأحوالها (وبغض النظر عن تسمية ذلك انتخاباً طبيعياً أم لا)، ولكن يقيناً كل ذلك لن ينتج عنه تغيرات في أعضاء هذا الغزال المميز فتظهر له أجنحة كالنسور مثلاً أو زعانف كالدلافين. أيضاً تقدير الله تعالى لجسم كل كائن مع بيئته؛ يعكسون اتجاه الاستدلال لتكون البيئة هي التي شكلت ذلك الجسم دون تقديم أي دليل علمي عملي تجريبي على ذلك ولاسيما مع رفض العلم لمبدأ (**توريث الصفات المكتسبة**).

وعلى ذلك: لماذا الإصرار دوماً على (تحريف) و (تأويل) كلام علماء المسلمين وتحميله ما لا يحتمل من المعاني المراد توجيهها لإيجاد أي أصل للتطور الصدفي العشوائي في كتب المسلمين أو الأقدمين؟!!

لقد بلغ الأمر كما قلنا (ومع **الجاحظ** بالذات لأنه أول مَن ينسبون إليه هذا الكلام) أن صاروا ينشرون كلاماً على لسانه وبلغة اليوم لا لغته هو ولا من كتابه ليؤيدوا به أفكار التطور (رغم أنها أصلاً تتعلق بالتكيف لا التطور كما قلنا) ومن ذلك نطالع في صفحة مقال عنه في الويكيبديا، ومن العنوان الفرعي عن (نظرية التطور) على الرابط التالي:

https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D8%AC%D8%A7%D8%AD%D8%B8#.D9.86.D8.B8.D8.B1.D9.8A.D8.A9_.D8.A7.D9.84.D8.AA.D8.B7.D9.88.D8.B1

قولهم (ولاحظوا ما سنضع تحته خطاً وزعمهم أنه من كلامه رغم أنه بصيغة كلام اليوم وليس **الجاحظ** الفصيح ولا طريقته):

"كان الجاحظ من أول من نظّر للتطور من البيولوجيين المسلمين. كتب عن تأثير البيئة على فرص بقاء الحيوان، وكان أول مَن وصف الصراع من أجل البقاء. كان الأول أيضاً في الكتابة عن سلسلة الغذاء كما كان من القائلين بما يسمى الحتمية البيئية حيث حاول أن يبرهن بأن للبيئة القدرة على تحديد الصفات والمميزات الجسمانية لقاطني المحيطات البيئية المختلفة، كما قال بأن لون البشرة المتباين بين البشر هو أحد نتائج تأثير البيئة. يذكر في كتابه "الحيوان":

<u>"تدخل الحيوانات صراعاً من أجل الحياة: من أجل المصادر مثلاً، أو بغية تجنب الافتراس من قبل الحيوانات الأخرى، أو من أجل التكاثر. بإمكان العوامل البيئية أن تؤثر على الكائنات الحية لتطور صفات جديدة تساعد على النجاة وبالتالي تؤدي إلى</u>

تحولها إلى أنواع حية أخرى. إن الكائنات الحية التي تتمكن من البقاء تستطيع التكاثر مما يؤدي إلى انتقال تلك الصفات المميزة إلى الذرية".

كان لكتابه هذا تأثيراً عظيماً على العلماء المســـلمين خلال القرون ١١ إلى ١٤ الميلادية، كما أن التراجم اللاتينية لأعماله وأعمال غيره توفرت لتشـــارلز داروين ولمَن سبقه كـ لينيوس، بوفون، ولامارك".

البشرة المتباين بين البشر هو أحد نتائج تأثير البيئة. يذكر في كتابه "الحيوان" :

"تدخل الحيوانات صراعاً من أجل الحياة: من أجل المصادر مثلاً، أو بغية تجنب الافتراس من قبل الحيوانات الأخرى، أو من أجل التكاثر. بإمكان العوامل البيئية أن تؤثر على الكائنات الحية لتطور صفات جديدة تساعد على النجاة وبالتالي تؤدي إلى تحولها إلى أنواع حية أخرى. إن الكائنات الحية التي تتمكن من البقاء تستطيع التكاثر مما يؤدي إلى انتقال تلك الصفات المميزة إلى الذرية."

كان لكتابه هذا تأثيراً عظيماً على العلماء المسلمين خلال القرون 11 إلى 14 الميلادية، كما أن التراجم اللاتينية لأعماله وأعمال غيره توفرت لتشارلز داروين ولمن سبقه كـ لينيوس، بوفون، ولامارك.

العجيب هنا أننا (وكالعادة) ورغم وضـــعهم لكلام **الجاحظ** بين علامتي اقتباس "" مما يعني أن المنقول (من المفترض) أنـه منقول حرفياً من كلامـه؛ إلا أننـا لن نجـد توثيقاً واحداً لهذا الكلام المنقول من كتابه (الحيوان) كما زعموا برقم المجلد مثلاً أو الصـفحة، وهو ما يعتبر في المجال العلمي غشـاً وتدليسـاً على القارئ وكل مَن سيظن صـدق هذا الكلام، وهو نفس ما نقله بمعناه للأسف موقع العلوم العربية Arab Science هنا:

http://www.grouporigin.com/clients/qatarfoundation/arabic/chapter2_6.htm

وهو التابع لــ (**مؤسسة قطر**) Qatar Foundation، فكلمات وتعابير مثل (**صراع من أجل الحيـاة**) و (**من أجل المصـــادر**) و (**العوامل البيئية**) و (**تطور صـــفات جديدة**) و (**بالتالي تؤدي إلى تحولها إلى أنواع حية أخرى**) إلخ:

كلها نتحدى أي أحد أن يأتي بها من كلام **للجاحظ** سواء في كتابه (الحيوان) أو غيره من كتبه أو كتاباته بل: ومن أي كتابات موجودة في ذلك العصـر وتلك القرون. والخلاصـة: إن كون الويكيبيديا موسـوعة حرة تقبل التعديل والتغيير وإضـافة أي محتوى بغير توثيق ســيبقى آفة كبرى تخدع عوام الناس للأســف بعكس الأكاديميين الذين يعلمون لماذا لا يمكن إدراج الويكيبيديا كمصدر علمي في أي بحث.

والمشـــكلة الكبرى هنا هي إذا كان هذا هو حال الويكيبيديا (نعني الجرأة في تأليف كلام على لسـان **الجاحظ** ونسبته إليه في كتاب الحيوان ولم يقله) فما بالنا بالأشخاص العاديين

مثلاً وما يمكن أن يضيفونه أكثر من ذلك للرجل بغير تثبت ولا توثيق؟ ودعونا هنا نتناول إحدى المدونات للمعاينة قبل أن نستعرض اقتباسات حقيقية من كلام **الجاحظ** نفسه. وقد اخترنا المدونة التي جمعت أغلب ما يتم تناقله بالفعل في الموضوع وكأنهم كلهم ينقلون من بعضهم البعض بغير تثبت.

مدونة (**موج البحر**) Maojalbaher....

وهي المدونة التابعة للأستاذ: **سليمان محمد اللوح**، وسنتعرض منها على وجه الخصوص لموضوعه (**الخيالي**) باسم: (**رحلة عبر الزمان إلى قلب العالم**) هذا رابطه:

https://maojalbaher.wordpress.com/%D8%A7%D9%84%D8%B9%D9%82%D8%AF-%D8%A7%D9%84%D8%A3%D9%88%D9%84

حيث قام الأستاذ **سليمان** باستعراض عدد من مفكري العالم القديم والحديث وأشهر أفكارهم ومواقفهم وذلك في شكل (**قصة تخيلية**) وكأنه ينتقل فيها بين الزمان والمكان ويتحدث مع أبطالها بنفسه مثل **أرسطو** و**الجاحظ** ومن الأندلس للعراق.

وعلى ما يبدو أن سبب حديثه عن **الجاحظ** والتطور هو تأثره بسلسلة **عدنان إبراهيم** عن التطور ومدحه وتعظيمه الشديد **لداروين**، فأراد الأستاذ **سليمان** أن يشير إلى الدور البارز **للجاحظ** في أولوية أفكاره عن التطور كما يتخيلها، ولذلك لم يكن عجيباً أن يضع صورة من إحدى حلقات **عدنان إبراهيم** في مقالته عن **الجاحظ** وكتابه (الحيوان) في ورقته الرابعة التي بتاريخ ١٤/٠٢/٢٠١٥م على الرابط التالي من مدونته:

https://maojalbaher.wordpress.com/2015/02/14/%D8%A7%D9%84%D8%AC%D8%A7%D8%AD%D8%B8-%D8%A3%D8%A8-%D9%86%D8%B8%D8%B1%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B7%D9%88%D8%B1

وسننقل لكم منها الآن المقتطفات التالية ولاحظوا معنا أنها كلها من فهم وأسلوب الأستاذ **سليمان** نفسه وليس **للجاحظ** منها ولو كلمة واحدة كاقتباس مما سنضع تحته خط:

" وقد كان لأخينا الجاحظ فيها كلام كثير جداً فكان أول من نظَّر لنظرية التطور من المسلمين عندما كتب عن تأثير البيئة في فرص بقاء الحيوان فيها، وتحدث عن

سلاسل الغذاء مما يسمى في القرن الواحد والعشرين بحتمية البيئة فكان مما قاله لي ليلة الأمس مقولة أعجبتني فقال:

" تدخل الحيوانات صـراعًا من أجل الحياة: من أجل المصـادر مثلًا، أو بغية تجنب الافتراس من قبل الحيوانات الأخرى، أو من أجل التكاثر. بإمكان العوامل البيئية أن تؤثر على الكائنات الحية لتطور صفات جديدة تساعد على النجاة، وبالتالي تؤدي إلى تحولها إلى أنواع حية أخرى. إن الكائنات الحية التي تتمكن من البقاء تستطيع التكاثر مما يؤدي إلى انتقال تلك الصفات المميزة إلى الذرية". (نفس ما في الويكيبديا!!)

فقد أورد الجاحظ في كتابه الحيوان تبييناً مفصـلًا لتطور الكائنات الحية عن بعضـها البعض بنظريته الخاصـة في الصـراع على الموارد وكذلك بتجنب المفترسـات، وكان كتاب الحيوان من الكتب المحفوظة في مكتبة داروين كتاب الحيوان للجاحظ، وكانت في مكتبة بوفون، ولينيوس، ولامارك، الذين سـنزورهم جميعًا في رحلتنا عبر قلب العلم لنتعرف على ما يقولونه في العلم محتفظين لكلٍ بعمله وإنجازه، وأيضًـا عند زيارتنا لأخينا ابن مسكويه فسيحدثنا عن فكرة أعمق من فكرة الجاحظ وهي نشوء الأصل الحي من غير الحي، فإلى وقته يكون الفرج بإذن الله، ولكن دعونا نستعرض بعضًا من الأمثلة التي أوردها في كتابه حتى نفهم مدى دقته وبحثه وأن كتابه الحيوان أول كتاب نظَّر لتلكم العملية، فيقول:

"يخرج الناموس بحثًا عن طعام له وهو يعرف بالغريزة أن الدم هو ما يبقيه على قيد الحياة. وحالما ترى الناموسـة فيلًا أو فرس نهر أو حيوانًا آخر، تعرف أن جلده قد شكل بما يجعله يعمل كغذاء لها... باختصار لا يمكن لأي حيوان أن يبقى دون غذاء، كما لا يمكن للحيوان المفترس أن ينجو من أن يُفترس هو بدوره أيضاً".

(لاحظوا أن الكلام كله لا علاقة له بالتطور أصـلاً، فضـلاً عن الكلمات التي لا تنتمي لعصـر **الجاحظ** أبداً ولا أسـلوب اللغة في تلك القرون مثل (الغريزة) و (باختصـار)!! ودعونا نتابع باقي كلام **الجاحظ** الخيالي والذي لم يقله!!)

"إنه لمَن غير المألوف في البيئة أن تكون كل غزلانها ونعامها وحشـراتها وذبابها وثعالبها ونعاجها وحميرها وخيولها وطيورها كلها سـوداء. فالسـواد والبياض في الحقيقة تسـببهما خصـائص المنطقة وكذلك الطبيعة التي أعطاها الله للماء والتربة وكذلك قرب أو بعد الشمس وشدة الحرارة أو اعتدالها".

ولا شك أن هناك غير الجاحظ وابن مسكويه قد تحدثوا عن التطور في كتبهم المذكورة أسمائهم: ابن الهيثم، وإخوان الصفا، والخازني، وابن ريحان البيروني، وناصر الدين الطوسي، وابن خلدون، وأعدكم بزيارة خاصة لكل واحد فيهم عندما نبدأ بفكرة نظرية التطور فيما بعد.

وأما عن السبب والدافع القوي لكتابة الأستاذ **سليمان** لهذا الموضوع فيقول عن **الجاحظ**:

"قد كان حزينًا في آخر ليلة له من حياته فقال بأنه يحزن على أمة لا تذكره ولا تذكر أحدًا من إخوته الذي فتحوا أفاق العلم وبقروها، بل ولم يجعلوا لنا أي ذكرى أو موعد في حياتهم، وحتى كبار محققيهم ممَن يدعون المعرفة والبحث والتأمل لم يقرأوا شيئًا مما كتبنا، ولم يعيروه انتباهًا، فسُرقنا وذهبت نفوسنا هدرًا، وكان يريد بملء القلب الحزين أن يرسل رسالة إلى أحد المحاضرين المعاصرين في حاضرة القرن الواحد والعشرين وهو أخينا عدنان إبراهيم الذي لم يذكره ولو بالتلميح في سلسلة طويلة عن نظرية التطور الذي يعد الجاحظ أكبر منظريها بلا منافس ولا نظير، ومن المعلوم أن الجاحظ أهل للتجربة والشك ملأ بها كتابه الحيوان والدلائل التي لا يسبقها أدله ولا تباريها براهين، فقد كان لماعًا أسبق بكثيرين ممن نبجل اليوم، فكله أمل أن تصل شكواه ويصل صدى ألمه ليكون له ذكر ولكتبه قراءة وعمل من أمة هو أخوها في الدم والوطن والدين.

*** الجاحظ هو أب نظرية التطور القائل فيها بمبدأ الحتمية البيئية".**

انتهى النقل من مدونته، وعلى قدر ما صار الحديث عن التطور عند بعض المسلمين هو (**استعراض عقلي**) لمدى قدرة كل منهم على تأويل نصوص القرآن والسنة والعلماء لتوافق (**رؤيته الخاصة**) التي أسبغها على التطور من وجهة نظره هو وليس التطوريين (**الذين أول ما يرفعونه هو عدم التدخل الحكيم ولا الإلهي في الخلق ولا الأنواع**)، فعلى قدر كل ذلك على قدر ما سنرى الآن البون الشاسع بين كل الكلام الذي نسبوه إلى **الجاحظ** بأسلوبهم وفهمهم ولغتهم في عام ٢٠١٥م، وبين كلامه وأسلوبه وفهمه نفسه وربطه كل شيء صغيراً كان أم كبيراً بالله وحكمته كما سنرى الآن..

حيث يقول في المجلد الثالث من كتابه (الحيوان) باب (أجناس الذبان) أي الذباب:

"أجناس الذبان...

بسم الله، وبالله والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم، وعلى أبرار عترته الطيبين الأخيار.

أوصيك أيها القارئ المتفهم، وأيها المستمع المنصت المصيخ، ألا تحقر شيئاً أبداً لصغر جثته، ولا تستصغر قدره لقلة ثمن.

دلالة الدقيق من الخلق على الله...

ثم اعلم أن الجبل ليس بأدل على الله من الحصاة، ولا الفلك المشتمل على عالمنا هذا بأدل على الله من بدن الإنسان، وأن صغير ذلك ودقيقه كعظيمه وجليله، ولم تفترق الأمور في حقائقها، وإنما افترق المفكرون فيها، ومَن أهمل النظر، وأغفل مواضع الفرق، وفصول الحدود.

فمن قبل ترك النظر، ومن قبل قطع النظر، ومن قبل النظر من غير وجه النظر، ومن قبل الإخلال ببعض المقدمات، ومن قبل ابتداء النظر من جهة النظر، واستتمام النظر مع انتظام المقدمات - اختلفوا.

فهذه الخصال هي جماع هذا الباب، إلا ما لم نذكره من باب العجز والنقص، فإن الذي امتنع من المعرفة من قبل النقصان الذي في الخلقة باب على حدة.

وإنما ذكرنا باب الخطأ والصواب، والتقصير والتكميل، فإياك أن تسيء الظن بشيء من الحيوان لاضطراب الخلق، ولتفاوت التركيب، ولأنه مشنوء في العين، أو لأنه قليل النفع والرد؛ فإن الذي تظن أنه أقلها نفعاً لعله أن يكون أكثرها رداً، فإلا يكن ذلك من جهة عاجل أمر الدنيا، كان ذلك في آجل أمر الدين، وثواب الدين وعقابه باقيان، ومنافع الدنيا فانية زائلة؛ فلذلك قدمت الآخرة على الأولى.

فإذا رأيت شيئاً من الحيوان بعيداً من المعاونة، وجاهلاً بسبب المكانفة، أو كان مما يشتد ضرره، وتشتد الحراسة منه، كذوات الأنياب من الحيات والذئاب وذوات المخالب من الأسد والنمور، وذوات الإبر والشعر من العقارب والدبر، فاعلم أن مواقع منافعها من جهة الامتحان، والبلوى، ومن جهة ما أعد الله عز وجل للصابرين، ولمَن فهم عنه، ولمَن علم أن الاختيار والاختبار لا يكونان والدنيا كلها شر صرف أو خير محض؛ فإن ذلك لا يكون إلا بالمزواجة بين المكروه والمحبوب، والمؤلم والملذ، والمحقر والمعظم، والمأمون والمخوف، فإذا كان الحظ الأوفر في الاختبار والاختيار، وبهما يتوسل إلى ولاية الله عز وجل، وآبد كرامته، وكان ذلك إنما يكون في الدار الممزوجة من الخير والشر، والمشتركة والمركبة بالنفع والضر، المشوبة باليسر والعسر- فليعلم موضع النفع في خلق العقرب، ومكان الصنع في خلق الحية، فلا يحقرن الجرجس والفراش والذر والذبان، ولتقف حتى تتفكر في الباب الذي رميت إليك بجملته، فإنك ستكثر حمد الله عز وجل على خلق الهمج والحشرات وذوات السموم والأنياب، كما تحمده على خلق الأغذية من الماء والنسيم. فإن أردت الزراية والتحقير، والعداوة والتصغير، فاصرف ذلك كله إلى الجن والإنس، واحقر منهم كل مَن عمل عملاً من جهة الاختيار يستوجب به الاحتقار، ويستحق به غاية المقت من وجه، والتصغير من وجه".

انتهى النقل، فهل رأيتم الآن كيف هو أسلوب ولغة **الجاحظ** الأديب المتمكن وما هي مفردات وكلمات عصره التي يستخدمها وتكشف بكل وضوح مدى التدليس الذي يمارسه البعض على لسانه وهو منه براء؟!

بل ولو أمعنا النظر في كتابه، لرأيناه يذكر خرافات القصص الشعبية التي كان يتناقلها العرب وجيرانهم عن أنواع الحيوانات الجديدة عليهم إذ كانوا يسارعون باختراع سيناريوهات (تهجين) مضحكة بين أقرب نوعين شكلاً لها، وهو نفس التفكير السطحي جداً **للامارك** و**داروين** نفسه المتأثران بالتشابهات الشكلية الخارجية بين أنواع الكائنات الحية وصاغا على أساسها العديد من القصص الافتراضية لتحولات التطور العجيبة.

فنجد **الجاحظ** يذكر التهجين في كتابه (**باسم النتاج المُركب كما أشرنا من قبل**)، ليؤكد على أنه له حد يقف عنده وليس مفتوحاً، وأن ذلك الحد يقف في وجه تهجين أقرب الحيوانات إلى بعضها فيأتي الهجين ميتاً أو بغير نسل (أي عقيماً وذلك مثل البغل هجين الخيل مع الحمير)، وهو نفس ما اعترف به **داروين** نفسه في كتابه (أصل الأنواع) بعده بقرون عديدة في فصله السادس عن صعوبات النظرية.

وإليكم مثالاً لما ذكره **الجاحظ** في المجلد الأول من كتابه (الحيوان) باب (النتاج المركب) من أول صـ ١٣٧، وهو الباب الذي ملأه بكلمات مثل (**قالوا**) و (**قيل**) و (**قال**) و (**زعموا**) ليُبين لنا أنه غير موافق لما يقصه علينا، فيقول تحت عنوان: (**خضوع النتاج المركب للطبيعة**) مشيراً إلا أن الأصل في الطبيعة هو ندرة وقوع التهجين بين الأنواع إلا بتدخل مباشر غالباً من الإنسان:

"ولو كان أمر النتاج وما يحدث بالتراكيب ويخرج من التزاويج، إلى تقدير الرأي وما هو أقرب إلى الظن، لكانت الأظلاف تجري مجرى الحوافر والأخفاف، ألا ترى أن قرابة الضأن من الماعز، كقرابة البخت من العراب، والخيل من الحمير!! وسبيل نتائج الظلف على خلاف ذلك؛ لأن التيس على شدة غلمته (أي شهوته للجماع) **لا يعرض للنعجة إلا بالقليل الذي لا يذكر، وكذلك ما يحدث بينهما من الولد كذلك: إما ألا يتم خلقه، وإما ألا يعيش؛ وكذلك الكبش والعنز فضلاً عن أن يكون بينهما نتاج؛ لأنه قد يضرب الجنس في الجنس الذي لا يلقحه، ولا يكون اللقاح إلا بعد ضراب. وطلب التيس للنعجة قليل وأقل من القليل، وكذلك الكبش للعنز، وأقل من ذلك أن تتلاقح ولا يبقى ذلك الولد البتة"**.

وهنا انظروا إلى كلمته الرائعة التي ختم بها هذا الكلام بقوله:

"**<u>وقد تجاسر ناس على توليد أبواب من هذا الشكل، فادعوا أموراً، ولم يحفلوا بالتقريع والتكذيب عند مسألة البرهان</u>**".

فيا ليت **داروين** وأمثاله وقصصه وافتراضاته الخيالية راعت حكمة **الجاحظ** الأخيرة هذه في الفيصل بين الادعاء وبين الكلام الذي عليه الدليل والبرهان، حيث امتلأت كتابات **داروين** وكتبه كلها بكلمات الافتراض والاحتمال: **قد** و**ربما** **ومن المحتمل وقد يكون** و**إذا كان** و**احتمال** و**لو كان كلامي صحيحاً**.

وإليكم مثالاً عملياً من خرافات الناس في مثل هذا التهجين المضحك أو (النتاج المركب) الخيالي والتي ذكرها **الجاحظ** في نفس الباب وبعد العنوان السابق مباشرة صـ ١٤٢:

"**زعم في الزرافة...**

زعموا أن الزرافة خلق مركب من بين الناقة الوحشية وبين البقرة الوحشية وبين الذيخ وهو ذكر الضباع؛ وذلك أنهم لما رأوا أن اسمها بالفارسية أشتر كاو بلنك؛ وتأويل أشتر بعير، وتأويل كاو بقرة، وتأويل بلنك الضبع؛ لأن الضباع عرج؛ كذلك الذكر والأنثى يكون بهما خماع؛ كما عرض للذئب القزل -وكل ذئب أقزل- وكما أن كل غراب يحجل كما يحجل المُقيد من الناس؛ وكما أن العصفور لا يمشي؛ ومشيه أن يجمع رجليه أبداً معاً في كل حركة وسكون، وقولهم للزرافة أشتر كاو بلنك اسم فارسي، والفرس تسمي الأشياء بالاشتقاقات؛ كما تقول للنعامة: اشتر مرغ، وكأنهم في التقدير قالوا: هو طائر وجمل؛ فلم نجد هذا الاسم أوجب أن تكون النعامة نتاج ما بين الإبل والطير، ولكن القوم لما شبهوها بشيئين متقاربين؛ سموها بذينك الشيئين، وهم يسمون الشيء المر الحلو ترش شيرين وهو في التفسير حلو حامض، فجسر القوم فوضعوا لتفسير اسم الزرافة حديثاً؛ وجعلوا الخلقة ضرباً من التراكيب؛ فقالوا: قد يعرض الذيخ في تلك البلاد للناقة الوحشية فيسفدها (أي يجامعها)، **فتلقح بولد يجيء خلقه ما بين خلق الناقة والضبع؛ فإن كان أنثى فقد يعرض لها الثور الوحشي فيضربها** (أي يجامعها)؛ **فيصير الولد زرافة، وإن كان ولد الناقة ذكراً عرض للمهاة فألقحها فتلد زرافة، فمنهم مَن حجر البتة أن تكون الزرافة الأنثى تلقح من الزرافة الذكر، وزعموا أن كل زرافة في الأرض، فإنما هي من النتاج الذي ركبوا؛ وزعموا أن ذلك مشهور في بلاد الحبشة، وأقاصي اليمن، وقال آخرون: ليس كل خلق مركب لا ينسل ولا يبقى نجله ولا يتلاقح نسله، على ما حكينا من شأن الورشان والراعبي**".

وهنا انظروا مرة أخرى لكلامه الحكيم الذي يختم به مثل هذه الخرافات وكأنه يتحدث بعين بصيرته إلى قرون قادمة مما ستلاقي قصص وخيالات **لامارك** و**داروين** أسماعاً وتصديقاً بما أفسد العلم باسم التطور بالفعل إذ يقول **الجاحظ**:

"**وهؤلاء وما أشبههم يفسدون العلم، ويتهمون الكتب، وتغرهم كثرة أتباعهم ممَن تجده مستهتراً بسماع الغريب، ومغرماً بالطرائف والبدائع، ولو أعطوا مع هذا الاستهتار نصيباً من التثبت، وحظاً من التوقي، لسلمت الكتب من كثير من الفساد**".

وقبل ترك هذا المجلد الأول من كتابه، نود نقل شـــيء هام جداً فطن إليه **الجاحظ** من تشـــابهات الإنســـان مع الكثير من خلق الله (ســـواء القرود أو غيرها وحتى الأفلاك)، وكيف أنه في آحاد البشـر لكل منهم تجد خُلقاً أو أخلاقاً من سـائر الموجودات، حتى أنه أعطى هذا الباب عنواناً: (تسمية الإنسان بالعالم الأصغر) فقال:

"أو ما علمت أن الإنسان الذي خُلقت السموات والأرض وما بينهما من أجله كما قال عز وجل: "سـخر لكم ما في السـموات وما في الأرض جميعاً منه" إنما سـموه العالم الصـــغير ســـليل العالم الكبير، لما وجدوا فيه من جمع أشـــكال ما في العالم الكبير، ووجدنا له الحواس الخمس ووجدوا فيه المحسـوسـات الخمس، ووجدوه يأكل اللحم والحَب، ويجمع بين ما تقتاته البهيمة والســـبع، ووجدوا فيه صـــولة الجمل ووثوب الأسد، وغدر الذئب، وروغان الثعلب، وجُبن الصفرد، وجمع الذرة، وصنعة السرفة، وجود الديك، وإلف الكلب، واهتداء الحمام، وربما وجدوا فيه مما في البهائم والسباع خلقين أو ثلاثـة، ولا يبلغ أن يكون جملاً بـأن يكون فيـه اهتـداؤه وغيرتـه، وصـــولتـه وحقده، وصبره على حمل الثقل، ولا يلزم شبه الذئب بقدر ما يتهيأ فيه من مثل غدره ومكره، واسترواحه وتوحشه، وشدة نكره، كما أن الرجل يصيب الرأي الغامض المرة والمرتين والثلاث، ولا يبلغ ذلك المقدار أن يقال له داهية وذو نكراء أو صاحب بزلاء، وكمـا يخطئ الرجل فيفحش خطؤه في المرة والمرتين والثلاث، فلا يبلغ الأمر بـه أن يقال له غبي وأبله ومنقوص. وسـموه العالم الصـغير لأنهم وجدوه يصـور كل شـيء بيده، ويحكي كل صوت بفمه".

ومما سبق يتبين لنا أن الذين نسبوا كلاماً تطورياً **للجاحظ**، إما انهم فعلوا ذلك على وجه الغش والتدليس، وإما على وجه الجهل والغفلة إذ لم يقرأوا كلامه أبداً وإنما نســـخوا ولصقوا ما قاله المستشرقون عنه (**والمستشرق هو الرجل الأجنبي الذي يهتم بدراسة الحضارات والأمم الشرقية مثل الأمة العربية والإسلامية**)، أو أن أجنبياً هو الذي ترجم أو قرأ كلام **الجاحظ** ولكن بغير فهم تام للغة إلى درجة عدم التفريق بين المعاني وبين ما ينقله **الجاحظ** موافقاً عليه وما ينقله ساخراً منه وغير متقبلٍ له.

ولعل النقل الأخير التالي ســـيؤكد لنا الصـــنف الأخير تماماً والذي ربما بالفعل هو ما اعتمد عليه **داروين** وغيره في قصـص وافتراضـات تطور الإنسـان على الخصـوص، وزعمهم وجود حلقات وسيطة بين البشر وأسلاف شبيهة بالقرود أو الحيوانات عموماً.

حيث سيذكر لنا **الجاحظ** الآن كلاماً عن (**الدهريين**) وهم الملاحدة والماديين في عصره والذين يؤمنون بأن كل شـــيء مادي يمكنه **مع طول الوقت** (وهو نفس كلام داروين والتطوريين!!) أن يغير في الطبائع أو الأجســـاد بغير حاجة إلى التدخل الإلهي أو المعجزات أو حتى المسخ المذكور في القرآن بين ليلة وضحاها.

حيث يقول الله تعالى في ســورة المائدة الآية ٦٠: "**قل هل أنبئكم بشــرٍ من ذٰلك مثوبةً عند الله مَن لعنه الله وغضــب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعَبَدَ الطاغوت أولٰئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل**".

حيث خصــص لها الجاحظ في (المجلد الرابع) باباً للقردة والخنازير وصــفاتهم وهوان أخلاقهم بعنوان: (**هوان شأن القرد والخنزير**)، فذكر فيها مسخ الله لبعض بني إسرائيل قردة وخنازير جزاء ســوء فعالهم وصــنيعهم، وكيف أن **الدهريين** (وهم الذين يمثلهم التطوريين والماديين والملاحدة في عصرنا الحاضر) عارضوا ذلك الإعجاز الإلهي، ورفضوا الاعتراف به **إذا كان خارج أفعال الطبيعة ونواميسها وسننها**، وذلك لأنهم لا يؤمنون إلا بما كان في الطبيعة ويمكن تفســيره من الطبيعة (ولذلك يســميهم البعض **طبائعيين**) وهؤلاء كان لهم في المسخ موقفين أو فريقين عرضهما **الجاحظ** ها هنا...

فأما أحدهما فقد عارض وقوع المسخ أصلاً وأنكره، وأما الخسف فقال أنه ممكن وقوعه مثل الزلازل وغيره.

وأما الفريق الآخر فهم الذين تقبلوا إمكانية تحول بعض الناس إلى قرود بشرط أن يكون ذلك **بعيداً عن أي تدخل إلهي أو معجزة أو عقاب أو آية**، حيث يبدو أنهم انخدعوا بالقصص الشعبية والخرافية عن بعض البلدان والقبائل التي كان الناس فيها **يلبســون ذيولاً للحيوانات ويلبســون فراءهم وشــعورهم ليخيفوا الغرباء أو أثناء الإغارة على غيرهم**؛ فحســبهم بعض الجهال والســذج كائنات بين البشــر والحيوانات (يعني حتى لم يكن اللباس خاصــاً بذيول وشــعور نوع واحد كما يتمنى التطوريون ولكن أنواع مختلفة من الحيوانات)، حيث نقل الناس قصصاً لرؤيتهم لهم بذيول كذيول **التماسيح**، و**الأسود**، و**البقر**، و**الخيل**، وأذناب كأذناب **الســلاحف**، و**الجرذان** (يعني حتى ذيل القرود أو الشيمبانزي أو أشباههما لم تحظى بشعبية بين هذه الحكايات).

ثم نقل **الجاحظ** كلام أولئك الدهريين المتقبلين للمســخ (أو التحول الطبيعي بمرور الوقت) أنه يمكن وقوعه **بتأثير تغير الجو والبيئة والهواء والماء مع عدم انتقال هؤلاء الناس لمكانهم لفترة طويلة** (بماذا يذكرنا هذا الكلام؟ وهل ممكن أن يكون هذا ما نقله داروين وتأثر به حرفياً من كتاب الجاحظ فترك كل كلامه العاقل وأخذ هذه القصص والخرافات؟!).

وهكذا تحول المســخ من عقاب بين ليلة وضحاها إلى عملية تحول طبيعية وبطيئة على مدار الزمن، وإليكم نص كلامهم كاملاً كما نقله عنهم **الجاحظ**:

"**القول في المسخ...**

فأما القول في نفس المســخ فإن الناس اختلفوا في ذلك: فأما الدهرية فهم في ذلك صــنفان: فمنهم مَن جَحد المســخ وأقر بالخســف والريح والطوفان، وجعل الخســف

كالزلازل، وزعم أنه يقر من القذف بما كان من البرد الكبار؛ فأما الحجارة فإنها لا تجيء من جهة السماء، وقال: لست أجوز إلا ما اجتمعت عليه الأمة أنه قد يحدث في العالم، فأنكر المسخ البتة.

أثر البيئة... (وانظروا هنا كلامهم عن التكيف وإنزاله بمعنى التحول)

وقال الصنف الآخر: لا ننكر أن يفسد الهواء في ناحية من النواحي فيفسد ماؤهم وتفسد تربتهم، فيعمل ذلك في طباعهم على الأيام، كما عمل ذلك في طباع الزنج، وطباع الصقالبة، وطباع بلاد يأجوج ومأجوج، وقد رأينا العرب وكانوا أعراباً حين نزلوا خراسان، كيف انسلخوا من جميع تلك المعاني، وترى طباع بلاد الترك كيف تطبع الإبل والدواب وجميع ماشيتهم: من سبع وبهيمة، على طبائعهم، وترى جراد البقول والرياحين وديدانها خضراء، وتراها في غير الخضرة على غير ذلك، وترى القملة في رأس الشاب الأسود الشعر سوداء، وتراها في رأس الشيخ الأبيض الشعر بيضاء، وتراها في رأس الأشمط شمطاء، وفي لون الجمل الأورق، فإذا كانت في رأس الخضيب بالحمرة تراها حمراء، فإن نصل خضابه صار فيها شكلة، من بين بيض وحمر، وقد نرى حرة بني سليم، وما اشتملت عليه من إنسان، وسبع، وبهيمة، وطائر، وحشرة فتراها كلها سوداء، وقد خبرنا مَن لا يحصى من الناس أنهم قد أدركوا رجالاً من نبط بيسان، ولهم أذناب (أي ذيول) **إلا تكن كأذناب التماسيح والأسد والبقر والخيل؛ وإلا كأذناب السلاحف والجرذان، فقد كان لهم عجوب طوال كالأذناب، وربما رأينا المَلاح النبطي في بعض الجعفريات على وجهه شبه القرد، وربما رأينا الرجل من المغرب فلا نجد بينه وبين المسخ إلا القليل، وقد يجوز أن يصادف ذلك الهواء الفاسد، والماء الخبيث، والتربة الردية، ناساً في صفة هؤلاء المغربيين والأنباط، ويكونون جهالاً، فلا يرتحلون؛ ضنانة بمساكنهم وأوطانهم، ولا ينتقلون، فإذا طال ذلك عليهم زاد في تلك الشعور، وفي تلك الأذناب، وفي تلك الألوان الشقر، وفي تلك الصور المناسبة للقرود، قالوا: ولم نعرف، ولم يثبت عندنا بالخبر الذي لا يُعارض، أن الموضع الذي قلب صور قوم إلى صور الخنازير، هو الموضع الذي نقل صور قوم إلى صور القرود، وقد يجوز أن تكون هذه الصور انقلبت في مهب الريح الشمالي، والأخرى في مهب الجنوب، ويجوز أن يكون ذلك كان في دهر واحد؛ ويجوز أن يكون بينهما دهر ودهور، قالوا: فلسنا ننكر المسخ إن كان على هذا الترتيب؛ لأنه إن كان على مجرى الطبائع، وما تدور به الأدوار، فليس ذلك بناقض لقولنا، ولا مثبت لقولكم".**

* * * نهاية الفصل * * *